

الهيمنة الحضرية والطابع العمراني: نصية المعمار و سيميولوجيا النواصل

د. شهاب اليحياوي - جامعة قفصة. الجمهورية التونسية

yahyaouichiheb159@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2019/09/10؛ تاريخ القبول : 2019/09/28 ؛ تاريخ النشر : 2020/01/30

ملخص :

تطرح الورقة المقترحة إشكالية تأثيرات السياسات التنموية وبرامج إعادة التهيئة والتوسعة العمرانية التي تنجز في الفضاء التاريخي الذي هو المدينة التقليدية وما تفرزه من ظواهر حضرية مرضية مثل ازدواج والتداخل التقليدي والحديث على صعيد العمراني والجمالي من المعمار التاريخي في المدينة التقليدية العربية من جهة وعلى صعيد الاستعمال الذي يقيمه الفرد المدني للفضاء الخاص العام، الداخل والخارج، الظاهر والمخفي. والذي يكشف عن ازدواجية تواجد التقليدي ضمن الحديث والحديث ضمن التقليدي.

لذلك نريد من خلال هذه الورقة ان ندرس هذا التداخل والازدواج على مستوى العمراني والجمالي والاستعمال الجمالي للخاص العام وللداخل والخارج في تواصل مع الموروث القيمي والرمزي لشاغلي الفضاء المدني بشكليه التقليدي والحديث.

وقد اعتمدنا في دراستنا على المنهج الكيفي واختارنا تقنية المقابلة والملاحظة المباشرة لتجميع البيانات والمعطيات التي سنختبر من خلالها فرضية البحث الرئيسية التي مفادها ان الفضاء يتحدد شكله ووظيفته عبر الاستعمال اليومي من قبل شاغليه الذين يتواصلون مع هذا الفضاء من خلال هابيتوس Habitus فضائي يحيلنا الى الجماعة الاجتماعية المرجع ويتواصلون عبره مع الآخر رمزيا لا ماديا، اعتبارا لأن استعمال المجال دال على مسابته او عدم مسابته للقيم والمعايير المستبطنة. فالحال حتم الخطاب سيميولوجي يفسح تأويله درجة الرابطة الاجتماعي Le Lien Social لشاغله وتواصله مع بيئته الحضرية تأثرا وتأثيرا.

وسنختبر هذه الفرضية بالنظر الى الاستعمال الذي يقيمه الفاعلون لواجهة المسكن الحضري ضمن المدينة التقليدية في تواصلهم مع ذاكرتهم الفضائية الجماعية وأسمائهم الرمزي الذي يسقطونه على ما هو مادي (المعمار) ليتحول الى لغة للتواصل أي سيميولوجية الفضاء والتواصل الاجتماعي داخل الفضاء المدني. كما سنختبر هذه الفرضية على صعيد استعمال الداخل أي توزيع الغرف واستعمالها بالنظر الى المورفولوجية الأصلية لهذا الداخل.

الكلمات المفتاحية : الهيمنة الحضرية ، الاستعمال ، المجال الخاص ، المعاش اليومي ، الذاكرة الجمالية.

Abstract :

In this paper we treat the problems and effects of development policies , rehabilitation programs and the urban expansion accomplished in the traditional city as a historical space and what it engenders from satisfactory urban phenomenons like duplication and interference between the traditional and the modern on the urban and aesthetical level of historical architecture in the traditional arab city on a hand and the level of use assessed by the urban individual of private and public space, both on the outside and inside, the visible and the hidden which reveals the presence of the traditional within the modern and also modern within the traditional.

That's why we want to study through this paper the interference and duplication on the urban and aesthetical level and use of private and public spaces in the inside and the outside in relation with the symbolic and value inheritance for the civil space occupiers in both its forms : traditional and modern .

We adopted in our study the qualitative approach and we chose the meeting and direct observation method to collect data and information that will be used to test the principal search hypothesis aiming to show us that both the shape and the function of the space are determined through the daily use by its users who communicate through spacial habitus referring us to the social community and used to communicate with others symbolically and not physically , considering that the use of space indicates the presence or lack of underlying values and criteria .

In fact the field holds a symiologic speech whose interpretation exposes the degree of social cohesion of its occupant and his communication with the environment either affecting it or getting affected by it

Moreover we will test this hypothesis by observing the actor's use of the facade of urban housing within the traditional city in their connection with the collective space memory and symbolic capital projected on material (architecture) so that it becomes a language of communication wich means symiologic space and social communication within the urban space.

We will also test this hypothesis on the interior use level: like the distribution of rooms and their uses in view of the original morphology of this interior.

Keywords : urban dominance, use, private space, daily pension, spatial memory.

I. I- تمهيد : المفاهيم الرئيسة وتعريفاتها الاجرائية

نعتقد أنّ فهم وتعقّل المجال المدني اليوم وما تفرزه الهيمنة الحضرية من مشكلات وظواهر تلجّ على البحث ان يستنطق سوسيولوجيا الممارسات الفضائية من وجهة نظر المعاش اليومي للذوات الاجتماعية الذي يستدعي فعل الاستعمال. ذلك أنّه عبر الاستعمال يتنقل ويتمأسس المعنى الذي يجب ان يبحث عنه السوسيولوجي التفهّمي في تمثّلات الذوات الاجتماعية التي تتواصل مع مجالها الذي تتواجد فيه الآن وهنا من خلف شاشة انتقائية بعبارة موسكوفيتشي (Moscovici, 1990). إنّنا أمام ظاهرة سوسيولوجية وهي الاستعمال الذي يحيلنا الى البعد الثقافي والرمزي للعلاقة بين الذات الاجتماعية ومجالها الحضري بأشياءه وأحداثه وعمرانه ومعمار وقيمه ومعايره وتاريخه وحاضره ويعيد استدعاء الجدل حول العلاقة بين المجال المدرك والمجال المعاش (Maffesoli, 1979). ويتخذ هذا المجال الحضري العام منه والخاص، الداخلي او الخارجي، الظاهر والمخفي، دلالاته من خلال الشاغلين له أي المستخدمين والموظفين له (Zanned, 1994) بما يصبغون عليه من دلالات ومعاني تُنقل وتُدوّت عبر دوال تتعالى في الفهم السيميولوجي عن مظهرها المادي لتقترح نفسها على الفاعلين وعلى عملية التواصل الاجتماعي كلغة أي كخطاب (Barthes, 1984). وهو ما يضعنا أمام شاغل المجال المدني أو الحضري كفاعل اجتماعي لا كعنوان للنسق وأمام علاقة دينامية معقّدة بين الذات وبديهيّات معيشها المجالي اليومي المحيط بها ويوجّه البحث السوسيو-حضري للتعامل مع مفهوم "المدينة الدينامية" لا " المدينة الثابتة " بعبارة فيفزيقرافماير Yves Grafmeyer. فالفاعل المدني بما هو حمال لمعنى ومنتج لدلالات ومدوّنة رمزية عبر الاستعمال ينكشف في التحليل السوسيولوجي كفاعل تغيير (Touraine, 1984) له قراءته الذاتية للتغيير الحضري بمظهرها في استعمالاته للمجال الخاص الذي هو قاطرته نحو الآخر والمشارك. فهو لا يستهلك المجال الذي يحيا ضمنه بل ينتجه بما يمنحه ولأشياءه وصوره وأشكاله من عمق ثقافي وابعاد رمزية تتحوّل معه الى كتابة سيميائية لنص اجتماعي تشترط على عملية فهمها تملك شفرتها الرمزية لبلوغ منظومتها الدلالية. فعلاقة الذات الاجتماعية بالمجال الحضري وأشياءه تحكمها العلامات التي تمنح للمكان عبر الاستعمال ابجدية مخصوصة لا يفقهها غير القادر على أن يقتحم عوالم الذات المدنية الداخلية المشبعة بالرمز والتاريخ والذاكرة والمخيلة الرمزية (حضور الشيء الغائب في الوعي عبر صورة) (دوران، 1994) التي تحصّن المكان والمادة من النسيان ومن التغيير وتشكّل آلية لامادية للرفض والمقاومة الذي يمارسه ما نسميه بالتغيّر الموازي أو العفوي (Tessier, 1988) لمخرجات الهيمنة الحضرية. ففي وعينا الحاضر يرتسم بعبارة هالبواك " جميع الناس الذين سبقونا في الوجود والذين تُحفر ذكراهم في حجارة المدينة، وفي مخطّطات الطرق، كما في الآثار التي تُعرض أمام أعيننا. ويستمدّ مكان العبادة وجوده ومضمونه الديني من أنّ الناس شيّدوه ذات يوم وشغلوه بطقوسهم التعبديّة قبلنا. فالماضي يندرج، إذا، في أطر مادية تشكّل الذاكرة الجماعية ضمنها وعي الجماعة" (هالبواك، 1976). إنّنا أمام ظاهرة كئيّة تتداخل وتتفاعل ضمنها متعدّد العوامل وبالتالي التفسيرات التي لا تنفي بعضها بقدر ما تشكّل زوايا متعدّدة لنفس الظاهرة (Gurvitch, 1963).

ويعتبر Françoise Choay (1994) أحد مؤسسي المقاربة السيميولوجية للمجال العمراني والهندسة المعمارية في بحث انجزه ونشر تحت عنوان Sémiologie et Urbanisme سنة 1969م. أمّا ادوارد هال (Hall, 1971) فقد درس في كتابه " البعد الخفي " أهمية المجال من حيث أنّها تحيل الى المضمون الهوي لشاغله أي المرجعيات الثقافية في الكشف عن الانتماءات الثقافية عبر مفهوم المجاورة في مقارنة بين

الثقافات الألمانية، الإنجليزية، الأمريكية، اليابانية والعربية في استعمالها للفضاء البين شخصي. يوجد حسب إدوار هال ثلاثة مظاهر للمجال وهي: 1. الفضاء الثابت 2. الفضاء نصف ثابت 3. الفضاء لا شكلي.

وفي هذا السياق يمكن أن نستدعي مشروع سيميولوجيا المدينة الذي أطلقه محسن البوعزيزي (بوعزيزي، 2010) بحثاً عن قراءة تأويلية للنص الاجتماعي التي تستدعي المجال المدني كحقل للعلامات التي تحيل إلى الروابط التاريخية بين الدوال والمدلولات. ويدعو البوعزيزي إلى مقارنة سوسيو-سيميولوجية للمدينة وبالأخص المدينة العتيقة تندرج ضمن السوسيولوجيا التفهية التي تبحث عن أن تجسّر معرفياً الانتقال إلى المخفي من المرئي والمقال أي تاريخ وجغرافيا وتراث لامادي ومنظومة قيم وتمثلات. فمدينتنا " العربية تحتاج إلى فينومولوجيا تصف ابجدية المكان " بعبارة البوعزيزي (بوعزيزي، 2010). لتنفيذ لهذا التعاطي السيميولوجي للمجال وللمعمار للتواصل مع الأنا ومع الآخر عبر هذا الفعل الذي تمارسه الذوات الاجتماعية على معمارها.

وفي السياق ذاته يمكن أن نستعرض دراسة كل من الصايغي وبلال للمدينة الجديدة "علي منجلي" التي شيدت في إطار الحلول التي أوجدتها ولاية قسنطينة للحدّ من ظاهرة الازدحام وحلّ مشكلة الإسكان. وقد لاحظنا أنّ المباني المشيدة ضمن هذا المشروع سريعا ما عرفت تغييرات عديدة في مظهرها الخارجي. وقد انتهت إلى تأكيد فرضيتها المتمثلة في أنّ عجز هذه المساكن الجديدة عن الاستجابة لحاجيات شاغليها الجدد الحاملين لرؤى مغايرة للهندسة والمورفولوجيا المعتمدة هو الذي يبرّر عدم محافظة المدينة على تناسقها وبنيتها المعمارية والجمالية والهندسية وحتى المحلية التي بنيت على أساسها (saighi, 2009).

يمكن العودة أيضا إلى دراسة أن أحمد خواجه لمدينة "المهدية"، التي طرحت إشكالية المدن التقليدية أو التاريخية وما عاشته نتيجة الحقبة الاستعمارية من ظواهر حضرية مرضية مسّت النسيج العمراني وخلقت نوعا من أزمة هوية معمارية تمثّلت من وجهة نظره في هذا التناقض الملاحظ بين التقليدي والحديث أي بين الأصل والدخيل. وقد اعتمد كوحدة تحليل ضمن مقارنته المورفولوجية الدار في سياق طرح يستدعي تناول الأثروبولوجي لهذا الفضاء الخاص وعلاقته بالتراث المادي واللامادي للفرد والجماعة الاجتماعية (خواجه، 2006).

وقد كانت لنا نحن أيضا تجربة الخوض في المسألة الحضرية وعلاقتها بالفاعل المدني الذي هو المستعمل للفضاء. وقد طرحنا منذ 15 سنة تقريبا أسئلة بحثية حول كيفيات شغل الذوات الاجتماعية لمجالها المدني الخاص والعام من خلال مقولات هامة مثل الجغرافيا الشخصية والخرطة الذهنية للمجال التي طرحناها في علاقة استشكالية بالممارسة المحلية اليومية للذوات الاجتماعية في منطقة "الحفصية" من المدينة التقليدية تونس. وهي إشكالية تبحث عن فهم عمق الظاهرة الحضرية كعلاقة. وتتّلوّن هذه العلاقة بالنظر إلى الاستعمال الذي يمنحها صور عديدة تحيل إلى جماعات اجتماعية وإلى مرجعيات سوسيو-ثقافية وإلى مدوّنة رمزية (اليحياوي، 2013).

1. الهيمنة الحضرية:

يدلّل مفهوم الهيمنة لغويا على السيطرة وبسط السيادة والنفوذ والاشراف على من هو خاضع لسلطته أو سيطرته. ولذلك فمفهوم الهيمنة يفهم في حضور للأدنى أو الأقلّ أو الأضعف أو التابع (Lebaron, 2009). وهو ما يمنح للمهيمن الأولوية أي احتلال المرتبة أو المراتب الأولى. من هنا فإنّ الهيمنة الحضرية اقترنت في النظريات الأولى بمقياس الحجم الذي يرتب مدائن (الدجاني وعابدين، 2009) الإقليم أو البلد إلى مدينة أكبر وأضخم من حيث حجم تجمّعها السكاني (مقياس كاريستالر). أمّا جيفرسون فيعتبر المدينة المهيمنة هي في معظم الحالات عاصمة الدولة والتي تكون الأولى (نضال محمد بخيت، 2012) من حيث الحجم وتركّز الوظائف التي

تجعل باقي المدن التي تليها مرتبة مرتبطة بها اداريا وسياسيا واقتصاديا. وتجعل الهيمنة او الأولية الحضرية المدينة مركز جذب للهجرة الداخلية (إسماعيل، 1988) بين حضرية أو هي منتجة أيضا وبالأساس لحراك ديمغرافي يمس من توازن ريف-مدينة ومن معادلة المجال الريفي/المجال الحضري. إذا فهذا التعريف الاجرائي الذي نكتفي به هنا لكفايته التي تضعنا أمام إشكالية بحثنا المتصلة بمخرجات وتأثيرات الظواهر التي تفرزها على البنية السكانية وتركيبها الاجتماعية التي هي تركيب السياقات والمرجعيات القيمية وتباين أنماط السكن وتصور العالم يحول المدينة الى حقل لتفاعل وتباين واختلاف وصراع المرجعيات القيمية التي ترسم على النسيج المعماري والنسيج العمراني للمدينة خلق كما سنبين ذلك فيما بعد واقعا حضريا يتسم بالتذبذب وفقدان المجال التقليدي لشخصيته الحضرية التاريخية وتداخل التقليدي والحديث في أنماط السكن وكيفيات شغل واستعمال متحوّزي مجالهم الخاص (الدار) لمجالهم بأشياءه وفضاءاته ومعمارته وزخارفه ووظائفه.

2. الفضاء التاريخي: المدينة التقليدية

يطلق لفظ المجال التاريخي للتدليل على نموذج تنظيم اجتماعي للمجال الحضري (Grafmeyer, 2015) وفق تصوّر للعالم مختلف ومخالف للمدن الجديدة والمعاصرة التي تشكّلت تاريخيا استنادا الى موجة التقدّم والتطوّر التكنولوجي والصناعي لتستجيب لوظائف واستخدامات جديدة وتمثّل وتصور حديث للمدينة وللتحضر. ويستعاض أحيانا عن المجال التاريخي بعبارة المجال التقليدي (زمن ماضي) في تقابل مع المجال الحديث (زمن معاصر). معنى ذلك اننا نستدعي مع القارئ حين نستخدم عبارة المجال التاريخي صورة المدينة العربية الإسلامية كمرحلة متقدّمة في تاريخ تكوّن المدن العربية. فالمدينة التاريخية هي المدينة التقليدية التي تكوّنت وفق فلسفة وسياق تاريخي وارضية أيديولوجية وأهداف سياسية واقتصادية وأمنية وإدارية (Roncayolo, 1990) موصولة ببيئتها العربية الإسلامية. تتميز المدينة التقليدية العربية الإسلامية بنسيج عمراني خصوصي وتكوينات عمرانية (المسجد والسوق والقلعة والصور والزوايا والمدارس والخانات) وتجمعات سكانية من طبيعة خصوصيتها (سراج الدين، الصادق، 1981). وتنظّم المورفولوجيا العمرانية للمدينة (La Medina) وجسمها المعماري حول مركز يمثل الحياة الدينية للمجتمع الحضري الإسلامي. فالهيكلة الحضرية ومورفولوجيا المدينة ترسم مجاليا بالنظر الى محاور ثلاث وهي "المسجد الجامع" و "دار الإمارة" و "الخطة" انضافت لها محاور أخرى مع تطور عمران المدن العربية الإسلامية. هذا المسجد الكبير الذي " به يخطب الامام ويوجه الأمة ويرعى مصالحها وبه وحوله المدارس ودور العلم ومساكن الطلاب والمكتبات. وحولها وسط المدينة من أسواق وحمامات ومرافق عامة. فالمدينة لها قلب وأطراف، مركز ودوائر، وفي المركز أيضا دور القضاء وحاكم المدينة ويتم البناء طبقا للطبيعة التي أبدع الله صنعها من ارض خضراء وماء وهواء وبالتالي تنشأ ضمن الدار قطعة من الطبيعة وامتداد لها" كما يقول حنفي حسن (حنفي، 1981). وتفرض الحياة الدينية لهذا المجال الحضري " نمطا مخصوصا من الضبط الاجتماعي وهندسة معمارية مميّزة واصله بين العلاقات الاجتماعية والترابعية الفضائية" (Stembouli, 2011) للمدينة. فكل شيء ضمن المدينة التقليدية (المدينة العتيقة تونس نموذجا) يتموضع بالنظر الى هذا الوسط المحور الذي يحيل الى النقاوة والى المثالية والى المقدّس (فالأصل اللغوي لكلمة مدينة تعود الى كلمة "دين" وتعني في الآرامية والعربية "القاضي" وإضافة إلى ذلك فان مصدرها في الآرامية "مدينتنا" وتعني "القضاء") (عثمان، 1988). وتتراتب الأسواق والأحياء حسب مدى تقاربها او تباعدها عن المركز الديني والذي كان له دور هام في تنظيم المجال من حوله. فقد ارتبط التخطيط العمراني ونسيجه المجتمعي (توزّع القبائل مجاليا

وانتظامهم ضمن تجمّعات سكنية متجاورة ومتقاربة) بأحكام فقهية مسّت تنظيم الحياة الدينية وعمارها وتنظيم الشوارع وترتيب الأسواق والمزارات والحمامات والأسوار. ويتمثل ضمن هذا الفضاء الحضري التاريخي نمط السكن في مورفولوجيته الداخلية وفي المرجعية القيمة لتوزيع وتنظيم وترتيب مكّونات هذا الداخل وعلاقته بالجمال العام من المدينة.

ونقصد اجرائيا بالجمال التاريخي "المدينة" العتيقة تونس (La Medina) والتي استجابت تاريخيا الى مقاييس الأولوية أو الهيمنة الحضرية على اعتبار تركّز السلط الدينية (جامع الزيتونة) والسياسية (تركّز إقامة البايات وأعيان السلطة) والاقتصادية والتجارية (الأسواق التي تربط روض باب سويقة بباب البحر أي المدينة الأوروبية) وعلى اعتبار مجاورتها للمدينة الحديثة والتصاقها بها (تلعّب الأسواق دورا رئيسيا في هذا الربط والوصل بين التاريخي من مكّونات العاصمة بالحديث والجديد) لتشكّل بشقيها التاريخي التقليدي والحديث المعاصر مركزا عمرانيا واداريا وسياسيا واقتصاديا يضم اكبر التجمّعات الحضرية للبلاد التونسية.

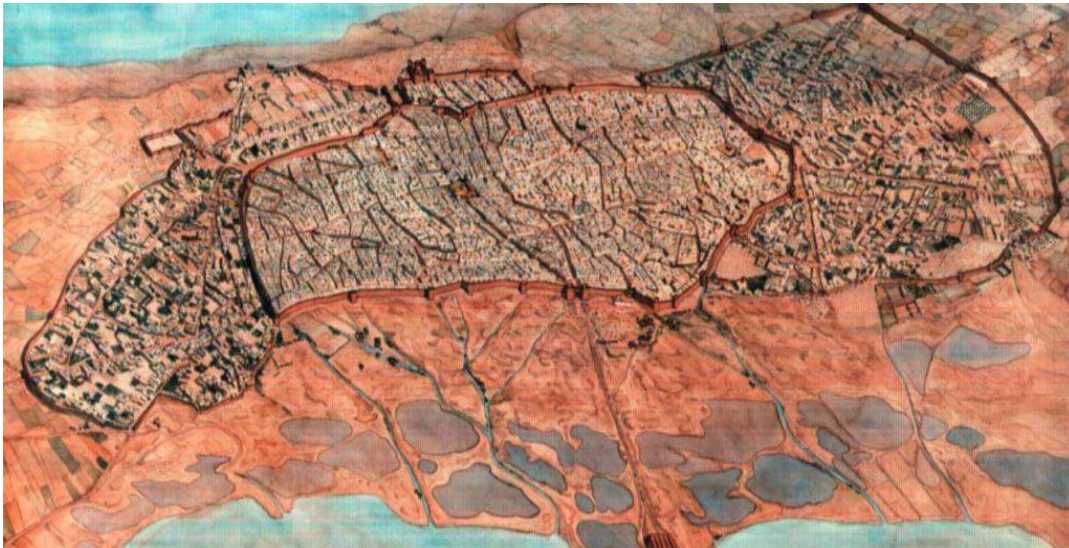


Figure. المدينة العتيقة 1 www.arru.nat.tn

3. المجال الخاص (الدار)

يقصد بالجمال أو الفضاء الخاص ما يسمى بالدار أو المنزل الذي يمثّل " متن كلّ الأصول أو كلّ بحث عن الأصل" أي الوحدة المحلية السكنية للفرد أو العائلة ضمن المدينة. والمجال الخاص الذي هو المسكن أو الدار ينكشف كعالم يجسّد الخصائص الثقافية والاجتماعية للجماعة الاجتماعية المرجع. وهي المجال الذي تعبّر فيه الذات المجتمعية عن تجربتها الشخصية " في نفس الوقت الذي تدلّ على اندماجها أو اقصائها" أو هي معمل المهندسين (Guy,2014). فالمسكن المشغول (الدار) يحيل لديه أساسا الى مفردية الفرد أكثر منه التناسق الطبقي والأمان أكثر منه التبادل وبعد الجيرة أكثر منه الجماعة الاجتماعية. والدار هي مجال تقاطع الخاص(الضيّق) والعام /الرحب (Bordieu,1980) وفضاء عيش وذاكرة فردية وجماعية ومجال تجسّد التراث المادي واللامادي (Levi-Strauss,1987) للفضاء التقليدي وما يرتبط به من شحنة وجدانية ومدوّنة العواطف والمشاعر والتصورات والتمثّلات. وقد تكون هذه الوحدة السكنية منزلا فرديا مستقلا أو شقّة ضمن سكن عمودي. وتحلّ شرفات هذا السكن العمودي محلّ السور في السكن الفردي المستقلّ كواجهة. أمّا الفضاء

العام فيقصد به المجالات المدنية المشتركة وهي تتراتب من الضيق/ القريب مثل "الزقة/الزقاق" الى الأوسع/الأقل قربا مثل "النهج/الشارع" الى الأكثر اتساعا/الأبعد مثل الحيّ او المنطقة الحضرية وصولا الى المجال المدني الأكثر عمومية وهو المدينة. ويستخدم البحث أيضا مفهوم المجال او الفضاء الفارغ الذي يقصد به الفراغات داخل الدار أو المنزل مثل الحديقة الأمامية أو خلفية الدار أو الأسطح. أما الفضاءات المبنية فتحيلنا الى الغرف ووظائفها الأصلية والاستعمالية بالنسبة للفضاء الخاص والى الفضاءات المشتركة كالحمام أو السوق أو الحلاق أو المقهى أو الزاوية.

التعريف الاجرائي:

نقصد بالمجال الخاص ما يسمى بالدار او المنزل او السكن الشخصي. وهو الجزء من المجال الحضري الذي تشغله الذات الاجتماعية فردا كانت ام عائلة بشكل من اشكال التملك والحوز القانوني والمجتمعي (Frommes, 1980). ويتخذ السكن الشخصي اشكالا متعدّد مثل السكن الفردي او السكن الجماعي (شقة في عمارة) أو شبه جماعي (تملك طابق سفلي او طابق علوي يشتركان في مدخا خارجي موحد). ويحمل دائما هذا المجال السكني الفردي او الجماعي آثار التطور الاجتماعي لمجتمع المدينة كمجتمع محلي والتحوّلات التي يعيشها المجتمع الكلي.

4. الاستعمال Usage : المفهوم وتعريفه الاجرائي

إنّ الاستعمال هو وحدة البحث الضرورية لتعقّل وفهم تعاطي الفاعلين للفضاء المدني الخاص الذي يشغلونه ويتحركون ضمنه كجسد ولكن بالأساس كذاكرة ويتفاعلون معه ويحيونه عبر تصوراتهم وتمثلاتهم له "وتحيا معهم المدينة" (Ledrut, 1968). فعبّر كيفية تملك واستعمال الذوات الاجتماعية لفضائها الخاص باعتباره " مجال المجازات" (Durand, 1969) تتمظهر وتنكشف هذه الذاكرة المجالية وبالتالي المعاش الفضائي للذي كان الذي انقطعت عنه الذوات الاجتماعية ماديا غير أنّه لا يزال يتخفّى ويتشكّل رمزيا ومجازيا في كفاءات شغلها لفضاءاتها المدنية الجديدة وما يسميه منير السعيداني التصريف المضارع للماضي (السعيداني، 2008). ننظر بهذا المعنى " للتغيّر الاجتماعي كسيروية مجالية أو فضائية" (Maffesoli, 1979). فضمن الوضعيات البسيطة (Bouchrara, 1994) لليومي والمعاش الفضائي يجد التغير العفوي غير المراقب وغير القابل للمراقبة ترجمته في فعل الاستعمال. فالليومي هو مجال تمظهر الذاكرة في المعمار والتوزيع الوظيفي والترتيب اليومي للفضاءات الداخلية وبالتالي مجال المخيال الجماعي وسجل رمزي يتمظهر ضمنه المقدّس طقوسيا (Goffman, 1973). وهو ما يذهب إليه مافيزولي في اعتباره أنّ " التعلّق بالمنزل والأرض وبالمكان وبالعادة يقوم على هذه الخاصية المقدّسة" (Maffesoli, 1979). فتتمّ في الواقع حميمة ولاء للمكان هو في الأصل ولاء لأسلوب حياة ولشروط إعادة إنتاجه وتثبيته (Bouchrara, 1994) في المجال الحضري. فالمدينة "هي موضوع مجالي" (Lefebvre, 1971) يكتيفه ويتكيّف مع مفرداته المعلمية والمواقعية شاغله. وتتمظهر جملة ثنائيات الوعي والذاكرة، الحاضر والماضي، المادي والرمزي، المقدّس والمدنّس، في حالات الدوام (الثبات) وكذا في حالات الحراك والانتقال ضمن وخارج المجال الحضري. فاستعمال المجال الخاص الذي هو الدار واستهلاكه رمزيا هو نوع من التواصل غير المنقطع بمنابع التراث الثقافي (الشفوي والمنقول) للذات الفردية والجماعية (فريديريك، 2006). فالإنسان العربي بالذات كما لدى محمد عابر الجابري لا ينقطع تماما عن تراثه وعن هويته الثقافية التي تؤطره كلياً بشكل يضعف او يغيب أحيانا استقلاليته وحرية لافتقاده الفكر النقدي، على خلاف الانسان الغربي،

(فريدريك، 2007) في التعاطي مع حاضره مما يحول التفكير في الحاضر واستهلاكه يمر عبر هذا التراث الثقافي الذي يحتويه كلياً ويحوّله الى عملية تدكّر بالأساس (الجابري، 1993).

5. المعاش اليومي:

يترجم مفهوم المعاش اليومي الى الحياة اليومية أو حياة كلّ الأيام بكلّ تفاصيلها وجزئياتها في الواقع وفي التمثّل أي الروتين اليومي الذي يكتب الدائم والثابت سيميولوجيا ويمظهره رمزياً في المعمار وفي الأشكال الهندسية والفنية والجمالية للفضاء الخاص. فيتحوّل الى نص اجتماعي لا يختزل فقط الماضي أي التاريخ ويحكي الحاضر بتفاصيله بل يحيل أيضاً الى الآتي، في المدينة وفي الحيّ مثلما في الفضاء الخاص. فما يبدو من المعاش الفضائي للذات الاجتماعية ضمن المدينة ليس دائماً بالضرورة الحقيقة (Fourrier, 1988). وهو مجال ديناميّ يخفي حزمة من الثنائيات والتناقضات التي تمنحه خاصّة الجدلية والدينامية المستمرة. الحياة اليومية التي تبدو في تمثّلها مسرحاً للخارق والخيالي والصوري الذي هو نسخة الجمعي المعاش أو اليومي الجماعي. وتلعب الوظيفة الصوريّة لدي مافيزولي دوراً هاماً من حيث كونها الوظيفة التي تجسّد ضمنها " التشابك أو التداخل العضوي للبسيط والخارق / اليومي والخيالي " (Maffesoli, 1979). فالتجربة المعاشة أو المعاش الفردي أو الجماعي داخل فضاء ما لا يجب مقارنته لدى لوفافر كنتيجة جامدة ونهائية بل كوضعية دينامية وتفاعلية يشبّنها " بالمنزل المتحرّك " (Lefebvre, 1958). والمعاش في تعريفه هو ما يقوم به (الفعل) وما يعرفه (الوعي) الفرد ضمن يومه ومجاله وهو المنجز غير المكتمل والمتجدّد. وهو الحاضر في الآن وهنا أي أنّه يلوّن رهن الفرد الاجتماعي. فمجال الفرد الفعلي هو فضاء الاستعمال وفضاء التفاعل. وهو بهذا المعنى مجال داخل مجال يصعب تفهّمه وتأويله في تغييب لتمثّلات شاغليه. وتستند هذه التمثّلات الى " لعبة حيازة واستعمال الفضاء " (capel, 1985). فالممارسة المجالية لمجتمع ما هي التي تنتج المجال بمتعدّد تظاهراته لدى لوفافر. فهي "تطرّحه وتقرّحه في تفاعل جدليّ: تنتجه بتأنيّ وثبات في الوقت الذي تسيطر عليه وتمتلكه" (Lefebvre, 1974). ويتطلّب فهم الممارسة المجالية أو الفضائية لمجتمع ما فكّ رموز مجاله الذي هو مجال التمثّل أي المعاش عبر الصور والرموز. ذلك أن الصورة " تشغل كسلطة فعلية " (دوبري، 2000). فكلّ شيء: من المنزل أو الدار (المجال الخاص والمخصوص) إلى الحيّ (المجال العام أو المشترك)، في جغرافيته مثلما في وظيفته لا يُقرأ في المرئي بل فيما هو متخفّ عن الملاحظة الماديّة المباشرة التي لا تنفذ بنا الى عملية تأويل توصل الباحث إلى ثنائيّة المدينة أو بعبارة الدكتورّة زناد Zanned، "المدينة الذاكرة" (Bouchrara, 1994)، التي لا تختفي خلف أسوار يستحيل التكهّن عليها، بل أنّ مقارنة المعيش الفضائي اليومي أي الاستعمال اليومي للمجال بمتعدّد أبعاده ينقل البحث الى الخلفية المفسّرة لهذا الاستعمال أو ذلك.

التعريف الاجرائي:

يحيل مفهوم اليومي اجرائياً الى كل ما يمارسه الفرد الاجتماعي في مجاله الخاص بشكل متكرّر غير مفكّر فيه وأنما ينحدر من الدارج والمطرّد والمألوف والمتكرّر في سلوكه واستعماله وتصرفه فيه وبه. فالمعاش اليومي يحيلنا الى أبسط جزئيات الحياة اليومية للشخص الاجتماعي وأكثرها سذاجة او ابتذالا. فكل هذه الجزئيات تحيل الرائي الى ما خلف المرئي من المعمار والأشكال والزخارف والألوان والاستعمالات التي يقيمها الفرد لمجاله المخصوص والذاتي الذي يصنع عالمه الرمزي ويمنح للدار بعدها الأنثروبولوجي.

6. الذاكرة المجالية

لا تنقطع الذات الاجتماعية عن ماضيها وان انفصلت عنه ماديا وجسديًا بالتحوّل من مجال إلى آخر مغاير ضمن المدينة أو من مجال ريفي أو تخوميّ إلى مدينيّ. فصلة الذات الاجتماعية بماضيه المجالي: بأشياءه ومعالمه ومواده وأحداثه وسردياته تستمرّ في الذاكرة الفردية والجماعية. فالفرد وكذا الجماعة يتحوّل بكلّ موروثه الثقافي وكلّ ثقافته المعيشيّة وكلّ تصوّراته وأوهامه وأساطيره وخياله وتمثّلاته وتطلّعاته التي تلتصق بالفضاء الذي شغله. وهو ما يلاحظ في التدخّلات التي يُخضع الفرد الاجتماعي بمجاله السكني الخاص الجديد (الذي يقع في احياء تشابه كل المساكن من حيث الشكل واللون والمساحة وتوزيع الغرف) لها على مستوى الواجهة الأمامية بالأساس ثمّ على مستوى اللّون أو تناسق الألوان بين الجدران والأبواب عبر الشبائيك الخارجية وكذلك الداخلية. ويتّسع هذا التدخّل في الفضاء الجديد إلى إعادة رسم التوزيع الداخل أي ترتيب الغرف بما يستجيب (كما سنبيّن ذلك فيما يلي) لمعايير أخلاقيّة وجماليّة بالأساس. يعني ذلك أنّ كلّ هذا المخزون الذي يشكّل ويكون الذاكرة يتجسّد رمزيًا، عبر تقليص الفجوة بين الفضاء الجديد وهابيتوس (بدوي، 2009) الذات المجتمعية الشاغلة له بما يقلّص من مساحة التوتّر الذي تحدّثه هذه الفجوة لديه. فالموضوعة المجالية للذكريات، في نظرية هالبوشز حول الذاكرة الجماعية وأطرها الاجتماعية، تحيل الباحث إلى " وجود مورفولوجيا للحياة العقليّة داخل مساحة جغرافية وإراثيّة. طبوغرافية " (Duvignaud, 1994) هي ما يجب عليه استقراءها وتأويلها عبر الممارسة المجالية اليومية للذوات الاجتماعية وفعلها في فضاءاتها الخاصة وكيفيات تواصلها مع المجال العام والمشارك. والذاكرة الجماعية، في تصوّره، تفكير متواصل واستمرارية لا يمكن وصمها بالتصنّع أو الافتعال، بما أنّها " لا تحتفظ من ماضٍ إلّا بما هو حيّ أو قادر على الحياة داخل وعي الجماعة التي تحفظه " (Halbwachs, 1950).

ثمّ إنّ المجتمع وكذا المجالي يرتبطان بقانون مورفولوجي دينامي. لإعادة بناء أنماط التبادل الرمزي المجتمعي يحوّل مجال الذاكرة " إلى مسرح معرفة موضوعيّة " (Jeudy, 1986). فهذه الذاكرة، لدى جودي، هي كليّة يتخفّى ويتمظهر ضمنها المجتمعي في منظومات علامات ورموز. فالرمزية الاجتماعية تحتكر كلّ حياتنا اليومية التي تلعب ضمنها الأشياء والصور والحكايات، لديه، دور شواهد على الذاكرة الفردية أو الجماعة أو استفزاز واستثارة الذكريات بعبارة هالبوشز. إلّا أنّ الذاكرة، في تصوّرنّا لا تفهم كعملية " تكثيف للذكريات " (Jeudy, 1986) كما لدى جودي بل لا تستعيد أو تتذكّر ماضي الجماعة فحسب بل تعيد تشكيله وتعيد عيشه أي أنّها تحوّل التاريخ الشخصي أو الجمعي إلى تاريخ حيّ معاش في الحاضر عبر أشياءه وفضاءاته وعبر استعمال الفضاء الخاص. وهو ما يفسّر اعتبار كابال Capel أنّ "التحوّلات الهامة للفضاء الحضري، كظهور أحياء جديدة أو اكتساب وظائف جديدة، تتأخّر كثيرًا لتندمج في تصوّرات المواطنين " (capel, 1975) حول هذا المجال. فما تحتفظ به الذاكرة من الماضي "لا يكفّ عن تقديم وسائل ضرورية لإعادة إنتاجه " (Halbwachs, 1952) في المجال الخاص أو العام لتحوّل الدار وواجهتها إلى نصّ سيميولوجي اجتماعي يقرأ منه موقف شاغليها من المشترك والمعطى للاشتراك ضمن المجال المديني.

التعريف الاجرائي:

يشير مفهوم الذاكرة المجالية اجرائيا الى كل الذكريات الموصولة بالمجال سواء كان العام (المدينة) أو الدار وتاريخها وكل التغيّرات والتبدّلات التي استوعبتها لتكون على ما هي عليه في اللحظة المعاشة. والذاكرة المجالية سواء الفردية أو الجماعة هي صور المعالم التاريخية المقترنة بخصوصية المدينة أو الحي أو الدار وتقتزن بحدوث أو حقب شهيرة أو روابط دينية أو أيديولوجية أو سياسية والبناءات التي تنتصب كشواهد على ماضٍ له مكانة لدى الفرد أو

الجماعة. ثم ان مورفولوجيا المدينة وبالمثل مورفولوجيا الدار تستحضرها الذاكرة في صلة وثيقة بممارسات مجالية وروابط اجتماعية ما يختلف ثقلها في الذاكر والتذكر من فرد الى آخر ومن جماعة اجتماعية الى أخرى بالنظر الى وضعية الماضي وموقعها في النسيج الاجتماعي لحاضر المدينة.

II - الطريقة والأدوات :

1. مشكلة الدراسة وأسئلتها

تطرح هذه الورقة العلمية إشكالية ازدواجية التداخل والتنافذ بين التقليدي والحديث على الصعيد العمراني والجمالي والمعماري في المجال الحضري التاريخي الذي هو المدينة التقليدية (منطقة الحفصية مثالا) من جهة وعلى صعيد الاستعمال الذي يقيمه الفرد المدني لمجاله الخاص الذي يشغله (الدار أو المنزل أو المسكن) في مستوى الداخل /المخفي (مورفولوجية الدار: تراتبية الغرف والفضاءات الداخلية واستعمالاتها) والخارجي منه (الصور أو الجدار الخارجي للدار أو شرفة المساكن العمودية). فهذا التنافذ والتداخل بين التقليدي والحديث خلف جسماء حضريا موسوما بتشتت وتباين مسّ التناسق والتجانس المعماري والجمالي والفني والمجالي المنشود ضمن توجهات التحضر الرسمي والمبرمج. وتمثل الدار أي المجال المخصوص للفرد الاجتماعي وحدة التحليل الأساسية لمقاربة هذه الإشكالية، ذلك أنّ الخاص الذي هو المنزل أو الدار هو الوحدة الفضائية والأساسية (Lefebvre, 1973) ونقطة التقاطع بين الداخل والخارج أو هي قناة التواصل بين الداخل/الغائب (العتمة) والعام/المعلوم (الضوء) والتي بقدر ما تكشف عن الشخصية الحضرية لكل جماعة اجتماعية فإنّها تحكيها عبر أشيائها ومعمارها المشبّع بالرموز والعلامات. فالدار أو المنزل خارج وظيفته الاستعمالية هي "أكثر من إرث إته حامل لذاكرة العائلة، هو استعادة للجدور، فهو يدمج ضمن تاريخ ويحتفظ بالصلات بين الماضي والحاضر" (Bouhdiba, 1979). فهي تحيل، في بعدها السوسيوثقافي الذي يتجلى في الاستعمال، إلى تمثّلات الجماعة الاجتماعية (Abrie, 1994) المرجع ولذاكرتها المجالية وشخصيتها الحضرية الجماعية. وتكشف هذا الذاكرة المجالية الممارسة والاستعمال اليومي للداخل والخارج / الفارغ والمبني، عن مدى التواصل الذي يقيمه مع الفضاء المدني أو ما يدخله الفاعل ذاته على فضائه الجديد أو القديم من ترميم أو إعادة تهيئة أو تغطية أو تقصير للصور أو سدّ للفتحات أو أحداث لها وما الى ذلك من الأفعال التي تتحوّل بمجرد إنجازها الى منظومة علامات يقرأ منها موقفه من المجال العام والمشارك من الفضاء المدني الذي يحتضن ذلك الآخر المشابه. ذلك أنّ فعل شغل الفضاء الخاوي (الفارغ) وبلورته يتجاوز بعده المادي (الترميم، الإصلاح والتوسعة وما الى ذلك) والجمالي إلى مستوى الرمز (Ferrier, 1979). فالجال هو جسر (شكل) الربط الذي يوحد ويستدعي الوحدة لدى جورج زيمل (Simmel, 1981) أو قناة تواصل بين المتحوّز له وماضيه وذاكرته أي مع ذاته ومع الآخرين. تصبح تبعا لذلك الدار منظومة دوال وعلامات يقتضي فكّ رموزها وتحوّل مدلولاتها العودة إلى الجماعة الاجتماعية المرجع وإلى مدوّنتها القيمية والمعاييرية وتمثّلاتها وذاكرتها ولكن أيضا أهدافها وغاياتها التي تبرّر وتوجّه ممارستها المجالية. فالجماعات تتحرّك في المجال والزمن " ولا وجود لها إلاّ لأنّها تدوم وتستمر" (هالبواك, 1976). من هنا يصبح اليوميّ أو التعاطي اليوميّ للمجال الخاص ومكوّناته أي الحياة اليومية لكلّ الناس تشكّل كما لدى لوفافر مستوى من الكليّة الاجتماعية وكليّة في حدّ ذاتها (Lefebvre, 1961). فضمن هذا اليوميّ ينكشف تاريخ الجماعة (أي جماعة) وحاضرها مثلما أوهامها وتطلّعاتها. ويشكّل اليوميّ والمعاش الفضائي اليومي في متعدّد أبعاده وجزئياته حتّى البسيطة (Maffesoli, 1979) موضوعا جادا للسوسولوجيا الحضرية وللبحث في المدينة. فالجال في التصرّور الجدلي

النقدي للوفافر هو مادة اجتماعية في ذات الوقت الذي هو " أداة للتفكير وللعمل ووسيلة للإنتاج والمراقبة وبالتالي للهيمنة والنفوذ" (Lefebvre, 1974).

تحيلنا إشكالية البحث تلك الى طرح فرضية رئيسية مفادها ان المجال تتحدّد اشكاله ووظائفه عبر الاستعمال اليومي من قبل شاغليه الذين يصطنعونهم لهم كجسر بين الهايتوس **Habitus** المجالي (القيم والمعايير والتصورات والرواسب والتجارب) للجماعة الاجتماعية المرجع وبابا (Simmel, 1981) يفتحه بأوجه متعدّدة ومتلوّنة على الآخر/ الغير. ثم أنّ الاستعمال يتغيّر بالنظر الى متغيّرات عدّة أردنا بطرح هذه الفرضيات الفرعية التالية أن تختبر تأثيرية الألفة بالمكان المترجمة اجرائيا في متغيّر أقدمية التواجد بالمكان إضافة الى علاقة متغيّر المستوى الاقتصادي والمادي بكيفيات شغل وتوظيف الذوات الاجتماعية لمجالها الخاص (الدار):

- أنّ المجال الحضري لا يتشكّل على أرض الواقع كليّاً عبر التخطيط والتغيير المنظم والموجه.
- أنّ المجال هو علاقة تتحدّد عبر الممارسة التي يكشفها الاستعمال اليومي.
- أنّ أقدم سكّان (البُلديّة " Le Beldi) الفضاء التقليدي هم أقلّهم ميلا الى المساس بالبنية التقليدية للدار ومورفولوجيتها الداخلية.
- أنّه كلّما صعدنا في المستوى المادي ونزلنا في أقدمية التواجد للأفراد والجماعات كلّما عبّر شاغل الفضاء الخاص عن ميله لتحديث التقليدي وتأسيس الحديث (منحه شكلا يحيل الى التقليدي في الزخرفة والأشكال والألوان ولكن مواده مستحدثة).
- أنّه كلّما نزلنا في المستوى المادي لشاغلي المجالات سواء التاريخية او الجديدة كلّما تراجعت نزعة التداخل والتنافذ بين التقليدي والحديث.

2. أهداف الدراسة

يهدف استشكال الممارسة اليومية للذوات الاجتماعية لمجالها الخاص ضمن مجتمع المدينة الى فهم وتعقّل تفضية **Spatialisation** شاغلي المجالات الحضرية لإرثهم الثقافي ورساميلهم الرمزية كما يرسم في واجهة المسكن التي تتحوّل بفعل تعدّد أشكال تفضية الممارسة الى نصوص سيميائية تحيل الى مورفولوجيا الروابط الاجتماعية للمجال الحضري في علاقة بما تفرزه الهيمنة الحضرية من عناصر تمس من النسيج العمراني للمجال. فالناس لا يتكيّفون بقدر ما يكتفون السكن الذي يتحوّزونه الى منظوماتهم القيمية بشكل يرمّز مجاليا درجة اندماجه في محيطه الحضري واجابته على هذه التحوّلات التي تصاحب سيروية التحضر (Guy, 2014). فالعمارة بما هي سكن ومجال لتعبير الهوية عن نفسها، هي أداة حوار وتواصل اجتماعي " مثل الايماءات البدنية" (الجادرجي، 2014) فهي بتلك الممارسات تمارس رفضا ومقاومة لقيم ومعايير الحضرية **L'urbanisme** التي تأسست عليها مشاريع التجديد وإعادة التهيئة الحضرية للمنطقة. ويتخذ فعل المقاومة والرفض أشكالا وأبعادا متعدّدة تنعكس تمظهراتها على الفضاء الخاص مثلما على المجال الحضري المشترك أو المعطى للاشتراك الذي هو المدينة.

3. حدود الدراسة

تندرج مقارنتنا الميكرو . سوسيولوجية ضمن هذه الجهود العلميّة لتعميق البحث في كيفية تفاعل الفرد المدني مع المتغيّرات التي تصاحب سيروية التحضر والتي تمسّ تمثّلاته وتصوراته ومخياله الجمعي وكل مدوّنته الرمزية التي تلتصق بالمجال الخاص بالأخص الذي هو نافذة وقاطرة الفرد نحو المشترك والعمومي من المدينة. لذلك فإن تركيزنا

سينكبّ على تعقّل وفهم اشكال التفاعل والتعاطي مع هذه المتغيّرات من منطلق القراءة السيميولوجية لتدخل الذوات الاجتماعية في معمارها التي تحيلنا الى موقفها وردّ فعلها على ما تخلفه الهيمنة الحضرية من ظواهر تمسّ رؤيتهم وتمثلاتهم لمجالهم الحضري الذي هو المدينة التقليدية التاريخية. وهي ترسم موقفها من هذه المتغيّرات على معمارية الدار (واجهة الدار) مثلما على مورفولوجيا الداخل.

4. منهج وأدوات الدراسة

يطرح البحث إشكالية تستدعي المقاربة السوسيومورفولوجية (جغرافيا المعنى المضمّن في الأشياء والمجالات) (Remy, 2004) التي تتخذ من المستعمل والاستعمال وحدة التحليل الأساسية لتفهم دلالات ومعاني الممارسة المحلية للذوات الاجتماعية ضمن المجال الحضري الذي تحيا وتتصرف وتتفاعل ضمنه مع الفضاء بأشياءه ومواده واشكاله وهندسته وفنّه لتبليغ رسائل ذات مضمون رمزي عبر تفضية مدوّنتها القيمية والمعاييرية. من هنا فإن هذه المقاربة تستدعي علم اجتماع المعيش اليومي (لوفافر، مافيزولي، جافو Javeau) او ما يسميه شوتز (schutz, 1987) بعلم اجتماع الداخل.

وقد اعتمدنا ضمن هذا التمشّي التفهّمي المنهج الكيفي. وانتخبنا من بين تقنيات تجميع البيانات والمعطيات تقنية المقابلة شبه المقتّنة مع الاستئناس بالملاحظة المباشرة لميدان الدراسة لتوافقها مع غاية تتبّع وتقصي ما تتخذه واجهة المجال الخاص (سور الدار او شرفة الشقة بالبناءات العمودية او المسكن ذو طوابق) من أشكال هندسية أو هيئات متغايرة في الزمن وما يضاف اليها من تحسينات أو تغييرات او تجديد يتماشى وطبيعتها التقليدية أو الحديثة. وقد عاضدنا منهج البحث بتقنية تحليل الوثائق التاريخية (الوثائق الرسمية للهيئات الحكومية والفاعلين المتدخلين في صيانة المدينة والمحافظة على التراث والدراسات التي انجزتها هذه الهيئات الحكومية ومنظمات المجتمع المدني المعنية بالمسألة الحضرية)¹ المتصلة بمجتمع الدراسة وما عرفه من مشاريع تجديد وتحديث أو ترميم وإعادة تهيئة وما الى ذلك من التدخلات في سياق برامج التغيير المخطّط والمنظّم.

وتهدف المقابلات التي انجزناها مع شاغلي الفضاء الخاص (الدار) بالنظر الى متغيّرات المستوى المادي للعائلة وأقدمية التواجد بمجتمع الدراسة (الحفصية) مدعومة بما تسمح به الملاحظة المباشرة من تعقّب وانتقاء للمعلومات والبيانات والتسجيلات المتّصلة بإعادة انتاج وتديم تقليدية وتاريخية الدار أو ادخال تغييرات وتحديثات عليها، الى اختبار جملة من الفرضيات المطروحة.

5. مجتمع الدراسة والعينة

تقع منطقة "الحفصية" (مجتمع البحث) شمال المدينة العتيقة La Medina تونس بالعاصمة. وقد كانت المدينة العتيقة (التاريخية) في القدم قرية بربرية ذات تجمّع سكاني صغير يحمل اسم Oppidum Tunicense أو تيناس Tunès، لذلك لم يكن لها دور كبير في المدينة الأضخم قرطاج عاصمة إفريقيا البونية وإفريقيا الرومانية. ثم أصبحت امانة محلية لبني خرسان (أواسط القرن الحادي عشر الى أواسط القرن الثاني عشر)، قبل أن تتحوّل لولاية إفريقية تابعة لخلفاء الدولة الموحدية (1169-1229م). ومنذ (1229هـ/1574م) شكّلت عاصمة ملوك دولة بني حفص التي عرفت في عهدها ازدهارا مهما لم يعمر لفترة طويلة. فقد جدّد الأغلبة الحياة المعمارية حتى بلغت أوج ازدهارها خاصة أواخر العهد الصنهاجي وأيام بني خرسان. ونتيجة لموقعها

¹ وهم: وزارة التجهيز والإسكان، بلدية تونس، جمعية صيانة مدينة تونس، صندوق القروض والجمعاعات العمومية المحلية، المزدودون العموميون، اللجنة المحلية للقروض والمقاسم.

البحري الهام تمكنت من ربط علاقات تجارية مع كثير من المدن الأوروبية مما ساهم في توسعها ونموها خاصة معماريا" (Daoulati, 1976) هذا وقد شكّلت منطقة الحفصية على غرار المدينة العربية الإسلامية العتيقة، فضاء استقبال وعبور تاريخي احتضن منذ القرن العاشر ميلادي هجرة اليهود وحراكهم الوافد من بلاد كثيرة. فتشكّلت في رحم المنطقة حي سمي بالحارة. كان لفرضه بمباركة سياسية (الباي وضغط الاستعمار عليه) ودينية (دعم الولي الصالح محرز بن خلف) تأثير على المورفولوجية الاثنية والاجتماعية والدينية للمنطقة افضت الى حراك لليهود داخل المجال التاريخي هذا في مرحلة أولى ثم من الحارة الى المدينة الأوروبية. وقد خلقت حركية اليهود المحلية هذه حركة اقتحام واختراق للمنطقة من دوائرها القريبة (خارج الأسوار) ومن الأحزمة الريفية المتاخمة لها لتتحول من جديد الى فضاء استقبال لاختراق الريفي للمدني أصبحت معه الحفصية مثلما المدينة التقليدية محور تقاطع بين الريفي والتخومي (signolles, 1981) أي بين شكلين لغزو الفضاء المدني يطرحان على التغير الحضري المنظّم ذات الإشكال.

وقد تعمّدنا أن تكون العينة جغرافية قصدية بمعنى أننا تعمّدنا اختيار الأنهج التي سيتم انتقاء الأفراد الذين سنجري معهم المقابلات عشوائيا وتكون معطاة للملاحظة المباشرة، بحيث تتضمن العينة الجغرافية الفضاءات التقليدية التي بقيت على حالها وعرفت بعض الترميمات في اطار مشاريع إعادة تهيئة الحفصية أو عبر القروض التي اسندتها جمعية صيانة مدينة تونس للمتساكنين لترميم ديارهم والحفاظ على طابعها المعماري التاريخي والفضاءات التي تم تشييد وبعث مشاريع سكنية جديدة إضافة للفضاءات التي عرفت في غياب التدخل الرسمي اختلاف وتخالف التدخلات الذاتية والعفوية على مستوى الفضاء الخاص الذي هو الدار.

II- النتائج ومناقشتها :

1. التجديد الحضري للحفصية: تمرّق النسيج العمراني التقليدي

تأسست غالبية مشاريع (1931 مشروع أروي - 1973-1981) إعادة تهيئة منطقة " الحفصية"، هذا الحي الذي تقع في قلب المدينة التقليدية (البلاد العربي)، على فلسفة حضرية بنيت أساسا على معايير تقنية وتمويلية وتجسيدا لشروط الجهات الممولة للمشروع من غير الدولة. ذلك أنّ أهم الاستنتاجات المستخلصة من هذه المشروعات أنّها غيّبت المعطى السوسيوثقافي في عملية التخطيط الحضري. وقد أفضت، تبعا لذلك، هذه الاستراتيجية الحضرية الى انتاج ما يخالف هدفها المرجعي والمعلن. فقد تبنت هذه الاستراتيجية اجراء إزالة المباني التقليدية (الدار العربي، الوكابل)² غير القابلة للترميم لتحصيل رصيد عقاري ومساحات فارغة تسمح بإنجاز مشاريع سكنية جديدة تعيد رسم طوبوغرافية المدينة وتكبح عملية اختراق المجال التقليدي من المدينة العربية وتحويل ملامحها الحضرية التاريخية او تمسّ نسيجها العمراني. الا أنّ النتيجة على أرض الواقع خالفت المبرمج والمخطط مسبقا ضمن هذه المشروعات، حيث أفرزت جيوبا جديدة لتريف المدينة **Rurbanisation** واختراق نسيجها العمراني التقليدي (أي تشكّل فضاءات جذب أو حركية جغرا-مجالية جديدة من الأرياف أو من تخوم المدينة إلى داخل الحي) (Stambouli, 2011) الذي بدأ يهترأ ويفقد الى حدّ ما تناسقه وتجانسه المستمد من

² أي تدرية المسكن الخاص ضمن السكن الجماعي الذي يشبه مورفولوجية الدار العربي (وجود فراغ في الوسط يسمى بالحوش تطلّ وتفتح عليه الغرف. ثم يتم كراء كل غرفة بمفردها سواء للعابرين للفضاء والمتواجدين وقتيا ام لمن يريدون الإقامة بالمنطقة لكنهم لا يقدرّون على كراء منازل فردية او شقق في بناءات عمودية. فتتحوّل كل غرفة الى منزل مستقل بنفسه وتسكنه عائلة أحيانا كثيرة العدد.

حميمية علاقة السكان الأصليين والذين يصطلح على تسميتهم " بِالْبَلْدِيَّة " le beldi بالجمال الذي يشغلونه. فقد لعبت المشكلات التقنية والتمويلية دائما المبرر الواقعي والحقيقي لبرمجة مراجعات وتعديلات في المشروع. من ذلك أنّ البناءات العمودية التي شيدت في إطار التجديد العمراني للمنطقة لم يكن مبرجا تخصيص الطابق الأرضي للنشاط التجاري (دكاكين للكرء او التفويت النهائي بالبيع لغرض التجارة) ضمن خطة المشروع التنموية والتمدنية للجهة ولم يكن بفعل مراجعات فرضتها نتائج الخطوات الأولى للمشروع بل كان حلاً استثماريا لتوفير موارد تمويل لدفع التعويضات لفائدة الذين تم نزع ملكيتهم وتمويل أيضا بناء المجمعات السكنية الفردية أو الجماعية المكوّنة للحي الجديد.

لم تعتمد مشاريع إعادة تهيئة منطقة "الحفصية" الأولى خلال الحقبة الاستعمارية (1918م و1931م) على استراتيجية رتق الفجوات في النسيج العمراني التقليدي المترهل وترميم البناءات المتقدمة دون تدخّل او مساس بالمورفولوجيا المحلية التاريخية للحي بأبنيته وفراغاته وساحاته ومعالمه وأنماط السكن فيه. فقد تبّنى خيار الإزالة والتهدم بغاية إعادة البناء والتجديد وفق معايير وقيم حضرية جديدة (Pinson, 1993). إلا أنّ عملية الإزالة توقفت، ممّا خلق منافذ وجيوباً جديدة لاختراق الوافدين الجدد من المجالات الريفية أو التخومية أو أيضا شاغلي الحي القدماى (البَلْدِيَّة) le beldi لمسار التغيّر الموجّه والمخطّط (Tessier, 1988) وتوجيهه نحو تحقيق وجودهم بكل تظاهراته المحلية واليومية التي تقوّض اكتمال الصورة الحضرية التي برمج التخطيط لتجسيدها وفرضها على أرض الواقع. وقد أفضى هذا الاختراق العفوي للموجّه والمنظّم إلى بروز ظاهرة تكويخ³ منطقة "الحفصية" وبالمثل ظاهرة " الوُكَايِل " ⁴ وتردّي نسيجها المعماري وشرح مورفولوجيتها التاريخية عبر انتشار الساحات التاريخية الفارغة بصفة مبشرة في فضاء الحي والتي احتلّها الوافدين الجدد مثلما استغلت مهنا من قبل بائعي الملابس القديمة لتنظيم أنفسهم خارج إطار المراقبة في سوق خاص بهم. وهي سمة مشتركة مع غالبية المدن المغاربية تقريبا التي عرفت موجة تمدين سريعة ومستعجلة (Stambouli, 2011) خلال ستينات وسبعينات القرن الماضي أفرزت هذا الظاهرة التي مسّت الشروط الموضوعية للرباط الاجتماعي " لِبلْدِيَّة " بالمكان. (Baduel, 2009) معنى ذلك أنّ مثل هذه المشروعات الموجهة الى إعادة تهيئة المكان بما يتناسب ورؤية حضرية رسمية تستفّر، بجهلها او تجاهلها لنسيج الروابط الاجتماعية للمجال وبنيته الاثنية والمهنية والديمقراطية، مقاومة الفاعلين للتغيّر المنظّم والموجّه الذي يقصدهم ويقع خارج دائرة مصالحهم وأهدافهم بما أنّ اختيار السكن هو فعل مقترن بالهوية أكثر منه بمعايير مادية او جمالية (Authier, 2010). وقد تبنت هذه المقاومة استراتيجية تعمل على استثمار الثغرات التي تفرزها عملية المراقبة وآلياتها بغاية فرض وجودها أو تواجدها ضمن المجال ومن ثمة تطرح نفسها كواقع يلزم الفاعلين التنمويين الرسميين (السلط المحلية، جمعية صيانة المدينة، المنظمات المتدخلّة في مشروع اعادة تهيئة الحي) إيلاؤه اعتبار في عملية إعادة تنظيم المجال الحضري والتوزيع الوظيفي لفضاءات الحي القديمة التي تمّ ترميمها أو الجديدة المحدثّة في سياق رتق الفراغات في النسيج العمراني او استجابة لمعايير حضرية وتنموية جديدة فرضتها استراتيجية إعادة تهيئة الحي.

3 انتشار ظاهرة بناء الأكواخ بالمنطقة من أجل حيازة المساحات الفارغة وغير المستغلة أو أنها ساكنها من الطبقات الضعيفة جدًا التي لا تقوى على بناء مساكن بمواد البناء العصرية باهضة الثمن.

4 أي تدرية المسكن الخاص ضمن السكن الجماعي الذي يشبه مورفولوجية الدار العربي (وجود فراغ في الوسط يسمى بالحوش تطلّ وتفتح عليه الغرف. ثم يتمّ كراء كل غرفة بمفردها سواء للعابرين للفضاء والمتواجدين وقتيا ام لمن يريدون الإقامة بالمنطقة لكنهم لا يقدرّون على كراء منازل فردية او شقق في بنايات عمودية. فتتحوّل كل غرفة الى منزل مستقل بنفسه وتسكنه عائلة أحيانا كثيرة العدد.

وقد عرف هذا المجال الحضري المسمى أيضا بالحارة أو الحي اليهودي تاريخيًا حراكا سوسيو مجاليًا ديناميا داخل الحي ذاته وبينه وبين عديد أحياء المدينة التقليدية (البلاد العربي). وقد دفعت التقطعات والمراجعات الكثيرة لمشروعات إعادة تهيئة وتحديد المنطقة الى خلق دينامية مجالية متخارجه أي تدفع شاغلي فضاءات الداخل التقليدي والتاريخي (الحفصية) الى الخارج الجديد والحديث (المدينة الاستعمارية او ما يسمى بالمدينة الأوروبية التي هي العاصمة اليوم) في مقابل تدفق ذوي الأصول الريفية والتي يمثل الحق في المدينة عندهم كما يقول فرج اسطنبولي في ملكية سكن ضمن هذا الفضاء الحضري التقليدي. فإذا كانت الدينامية الداخلية مستت الطبقات الأقل حظا ماديا في سياق بحثها عن إعادة التموقع وممارسة الرفض والمقاومة دون فقدان الصلة بالمكان نهائيا، فإن الدينامية المتخارجه ميّزت نشاط الطبقات المتوسطة والأكثر حظا ماديا والتي لم يعد المكان يستجيب لتمثلها لمكانتها ضمن المورفولوجية الاجتماعية للمكان بما أنّ المدينة هي أسلوب حياة حسب ويرث (آدم، 2011). فتعلق الأفراد المدينين بمجالهم الحضري لا ينفي او لا يتعارض لدى ريمي مع وجود حراك (Rémy, 1996). فليس ثمة في الواقع تعارض بين التجدرّ بالمجال والحراك فكلاهما يقدمان نموذجان لشغل المجال او نمطان للسكن بالمدينة (Authier, 1992). وقد كان للدينامية المجالية الضمنية (الداخلية) الأثر البائن في المورفولوجيا الاجتماعية للمكان والتي هي، في واقع الحال، مورفولوجية الرباط الاجتماعي الذي يتجه الى خلق تماسك أعمق للمجتمع ككل (Paugam, 2008). فقد انتجت تصدعا ما في شبكة علاقات " البلديّة " من الشريحة الاجتماعية غير المخطوطة ماديا افضى الى تقلص جغرافيا حركتها وانتشارها في المجال (المنطقة). فالدينامية المجالية الضمنية أو المتخارجه لا تعيد هيكلية العلاقات بين الشخوص التي يتحدّث عنها بلان فحسب بل تمسّ بشكل ما الاندماج الاجتماعي كما يؤكّد ذلك ليبسات. فالحرّكة السوسيو مجالية قوّضت بمرجعيتها العفوية وكذا المخططة والموجهة (Tessier, 1988) أو التي هي نتاج التنمية الحضرية الموجهة، البنية التقليدية للروابط الاجتماعية (Bouhdiba, 1979) المميّزة لهذا المجال الحضري التاريخي والعلاقات بين شخوصية التي كانت قائمة على روابط الدمّ والقرابة وابن البلد أو على أساس سوسيو مهني أو اثني أو ديني (Pennec, 1964). فالحيّ اليوم يكشف عن فسيفساء اجتماعية ومهنية لا يجمع بينها ما يوصلها بالهوية التاريخية والشخصية الحضرية التقليدية لهذا الحي الذي يجمعهم. فقد كانت ولا تزال، كما يقول هارفي عبارة " تحميل المدينة والارتقاء بشكلها الحضاري " (هارفي، 2017) الذريعة التي تنتزع بها الأراضي والمساكن ويُغيّر شكل المدينة التي لا يصبح للسكان الأصليين مكان فيها أو تسحب الأرضية المجالية للرباط الاجتماعي التي توصلهم بالمكان. (حموش، 2012) فهل يجوز أن نعلن مع كواي موت المدينة (choay, 1994) لفائدة هيمنة الحضرية؟

وقد كان الحلّ الذي اتّجهت اليه الأطراف المتدخلة في محاولة للتحكّم في سيرورة التحضر اللا مراقب والغير قابل للمراقبة ذو صبغة قانونية. وقد تمثّلت إصدار المجلة الجديدة للتهيئة الترابية والتعمير وقبل ذلك إحداث هيكل من مشمولاته التنسيق بين مختلف المتدخلين في المشاريع التنموية الحضرية وتقليص فجوة عدم التفاهم وعدم الاتفاق والتنسيق فيما بينها والعمل على وضع استراتيجيات تنموية حضرية قادرة على كسب دعم السلط الرسمية وتفاعل المخططين والمنفذين معها. وقد تجسّد هذا الهيكل في وكالة التهذيب والتجديد العمراني (1981م) التي أشرفت على مشروع الحفصية (1981 - 1993 م) كمنسّقة بين بلدية تونس صاحبة المشروع وبنك الإسكان المتصرّف في الحساب الخاص بعملية التهذيب وجمعية صيانة المدينة كمكتب دراسات ووضع التصاميم لهذا

المشروع وأيضا مشروع 1973م والمتدخلين التقليديين⁵. إلا أنّ هذا الإطار التشريعي لإستراتيجية التنمية الحضرية للأحياء القديمة سواء المتعلق بتنظيم مختلف المشاريع الإعمارية أو التهذيبية أو التجديدية للنسيج العمراني للمدينة التقليدية أو بسلوك الفاعلين تجاه معمارية المسكن لم يحمل حلاً لما تعرفه المدينة التاريخية والحفصية كجزء منها ، من ظواهر اللا تجانس المعماري والجمالي الذي مثّل إحدى أهداف مشروع 1973م⁶ و 1981م . ويهدف تهذيب وتجديد النسيج العمراني للأحياء القديمة نحو مشروع إعماري وتديني، إلى التوحيد الذي فقد تدريجياً واقعه بفعل الاستعمال الذي يحيل إلى البعد الثقافي للتنمية الحضرية الذي يرسم آثاره على الواقع أي الحاصل المدني ولكنه لا يسجل حضوره في التخطيط واستراتيجيات التنمية الحضرية.

لم تكن مشروعات الترميم وإعادة التهيئة والتجديد العمراني التي لم تضع في اعتبارها المدينة كنسق معقد اليوم وأنها لا تمثل إلا حياً من التجمعات الحضرية المحيطة بها (Signoles, 2001) لتقدماً حلاً لما افرزته سيورة التحضر السريعة التي عرفت المدن المغاربية منذ حقبة الاستعمار، من ظواهر مرضية جعلت جاك بيرك (Berque, 1958) يتحدث عن مثلث: "مدن عتيقة" تتعايش أو تتعارض مع "مدن جديدة" أو حديثة و "مدن فوضوية" هي نتاج التغير العفوي أو ما أسميه بالموازي (اليحيوي، 2013). فهذه المشروعات لم تنجح، في المدن التاريخية المغاربية، في حماية الإرث المعماري والهندسي والمعلمي والحفاظ على تاريخيتها التي لا تستمدّها من وجهة نظرنا من الإبقاء على المعالم التاريخية وانماط السكن التقليدي ومورفولوجية المكان بل واساسا من قدرتها المفقودة على الاحتفاظ بالنسيج الاجتماعي الموصول ثقافيا ورمزيا بالمكان واعتمادها سياسة تحضر تفتقد لرؤية واضحة المعالم ومحسنة من اختراق الأيديولوجيا والتوظيف السياسي للمسألة الحضرية. أضف الى ذلك أنّ هذه المشاريع تحمل دائما عدم اتفاق بين مختلف الأطراف المتدخلة من ناحية وعدم تنبّئها الى نسق الفاعلين في كليتها وعدم تمثّلها للأفراد كفاعلين لهم مشاريعهم الذاتية ورؤاهم للمدينة التي تختلط فيها الأيديولوجيا بالأسطورة أحيانا وبالتالي قادرون على ممارسة رفض ومقاومة لمضامين ونسق سيورة التمدين التي تنبني عليها هذه المشروعات.

2. الوجه الظاهر من المجال الخاص: دينامية الداخل والخارج

وضعتنا الملاحظة المباشرة لتوظيف واستعمال شاغلي فضاءاتهم الحضرية (التقليدية منها والحديثة، الفردية منها والجماعية) أمام مشهدية موسومة بالحركية والتبدّل في تهيئة المكان ليستقبل أو يكون قادرا على استقبال حركة وانتشار الجسد ضمنه وعبره في علاقة بعنصر الزمن والنوع الاجتماعي. وقد اخترنا هذه الفرضية عبر متابعة الهياكل والأشكال التي تتخذها شرفة المنزل ذو الطابق العلوي أو شقّة بعمارة في فترات زمنية ثلاث (صباحا وعند الزوال وقبل الغروب) بأنفج وشوارع الأحياء القديمة أو الجديدة من منطقة الحفصية. وقد انتهينا الى أنّ هذا الجزء من الدار والذي يلعب دور الواصل/الفاصل بين الداخل (الخاص/المخفي/الخفي/المقدس/المحرّم) والخارج (الآخر/الغير: الشريك في المجال المشترك من الحي أو الغريب المار...) لا يحافظ في هذه الأزمنة الثلاثة على نفس هيئته بل أنّه يكشف للعين المجردة المتابعة عن تبدّل وتغيّر يحيلنا الى تدخّل بشري لإعادة تهيئته ليتناسب والوظيفة أو الاستعمال الذي سيخضع له في زمن من هذه الأزمنة في علاقة وثيقة بجنس المستعمل (انسان مجالي بعبارة ليسانس (Lussault, 2007). فهذا الانسان المجالي يبني اجتماعيا الفضاء الذي يشغله. فعبّر الاستعمال يُرتّب هذا الفضاء المتخارج عن الداخل (الشرفة) بأشكال مختلفة تراوحه في الزمن بين موصول بالداخل أو جزء

⁵ وزارة التجهيز والإسكان، التقرير الوطني لمؤتمر الأمم المتحدة الثاني حول المستوطنات البشرية. تونس 1996 م، ص 69.

⁶ في إطار برنامج الأمم المتحدة للتنمية الخاص بتونس وبدعم من منظمة اليونيسكو. موقع جمعية صيانة مدينة تونس <http://www.asmtunis.com>

منه وأحيانا أخرى منقطعا عنه تماما وغير مفضي اليه. ففي الصباح والمساء حينما تكون المرأة خارج المنزل أو منغمسة في المطبخ أو غيرها من الغرف التي تبعد عنها الشرفة لا يصبح لهذه الأخيرة سوى وظيفة التهوية (الوصل بين الرطب/الداخل والجاف/الخارج). فتتحول بذلك الى فضاء مفتوح (الضوء) لا يعزله عن الخارج أي حاجز مفتعل أو مضاف اليها لتحديد (العتمة) امتداد نفاذ رؤية الآخر الغيري للداخل الذاتي والشخصي. فتكون هذه الثنائية (الضوء والعتمة) موازية لثنائيتي الوضع / الغموض والجلي / الخفي (الكيال، 2011). فتلاحظ بذلك وأنت تعبر المكان تماثل الشرفات أو الواجهة الخارجية في فراغها والتقاءها في عذريتها المعمارية (عدم تضمينها لعناصر مفتعلة تغير من مظهرها).

أما في آخر المساء والى قبيل الغروب فيعاد تهيئة الشرفة أو الجسر الفاصل والواصل بالآخر ليستقبل حضور جسد المرأة أي تأنيث المجال الذي يفرض عليه أن يستوعب طقوس عبور جديدة. ففي هذا الفضاء الضيق تمارس المرأة في أشكال مختلفة لانتصاب وحركة جسدها اعمالا إضافية من مثل غسل الثياب أو نشرها أو الجلوس طلبا للراحة أو لتبادل الحديث مع الأجوار. لذلك نلاحظ أن مظهر الشرفة يتغير ليتحلى عن انفتاحه وينتهي وظيفته المناخية ليملي وظيفة نفسية أو اجتماعية أو تواصلية تقتضي في حضور للرأسمال القيمي والرمزي وتمثلات شاغل الفضاء ومستعمله لذاته ولعلاقاته بالآخر / الغيري، أن يعاد تشكيله لتسجل حضور الحاجز الادراكي أو الفاصل المادي (الحفه، حواجز خشبية مشبكة، ستائر خارجية...) يعزل شاغله ومستعمله عن مدى إدراك الآخر الذي يراود له أن يكون معلوما بقدر ما يكون الداخل مجهولا. فتتحول الشرفة من مساحة مدركة/معلومة (جسر للداخل) إلى غائب/مجهول (باب يعزل الداخل/الأليف عن مدى إدراك الخارج/الغريب). فيبدو الفضاء الحضري مسرحا للمختلف والمخالف في مشهد متحرك قابل للتبدل مع تغير المستخدم له (حضور وغياب الجسد الأنثوي) أو الاستخدام. فصورة المجال منتج لغير مقصده المادي باعتباره سجل رمزي يراوح بين التكييف الاندماجي وبين رفض ومقاومة ترتفع الفضاء لتعيد رسمه بالصورة التي تعكس ترقباته من الآخرين ومثانة أو تفكك الروابط الاجتماعية.

يمارس هذا النشاط المادي فعلا رمزيا يحيل الى هابيتوس (Bourdieu, 1970) الذات الاجتماعية التي تسترجع في اللحظة⁷ وفي هذا التدخل التمثلات الاجتماعية (Moscovici, 1990) الموجهة والمبررة للسلوكات والتصرفات والأفعال التي تتخذ من المعمار أداة لتبليغ معنى أو إعادة انتاج قيمة جماعية أو ترجمة الخضوع لإكراه القيم المستبطنة أو مقاومتها أو مراوغتها. فهو يؤث المكان حين تشغله المرأة فيغلقه بعد أن كان مفتوحا بتجسيدا للتقسيم الجنسي للمباح والممنوع، الحلال والمحرم، المقبول والمرفوض لحركة الجسد وتواجده بالمكان. فتبدل العناصر المؤنثة للمكان لتمنحه شكلا ولونا وهيئة مغايرة كعلامة على تغير شاغله واستعماله وبالتالي المنظومة القيمية المرجع. ثم إن الممارسات الاجتماعية تتغير وتتحول بناء على مستجدات وتطورات يومية (Giddens, 1998). إننا أمام مظهر متحرك لا ثابت للمعمار. فالمعمار وإن كان ثابتا ماديا غير أنه متغير ومتبدل في الزمن اليومي كمعبر أو ممر ابستمولوجي بعبارة جافو (Javeau, 2003). فالشرفة تتخذ مظهرين مختلفين في زمنين متباعدين من اليوم (الصباح وآخر المساء). فهي تنتقل من الانفتاح الوقي (غياب الحاجز

⁷ باعتبار أن هابيتوس (ملكة أو طبع) هو مجموعة من الطباع والصفات التي توجه سلوك وتصرفات الفرد وفق نماذج تصرف محددة بالجماعة الاجتماعية المرجع، تنقل له عبر التنشئة وتشكل رأسماله الثقافي والرمزي النوعي المختزل والذي يكون الخلفية اللا ارادية للتصرف وتعامل الفرد الاجتماعي مع العالم الخارجي والتي تجعل منه فعلا اجتماعيا داخل حقل أو مجال اجتماعي معين.

(المادي) إلى الانغلاق الطقوسي (عودة الفاصل المادي الحاجز عند حضور المرأة بالمكان) ومن الظهور إلى التخفي، من المعلوم إلى المجهول ومن الامتداد الأفقي إلى العمودي (تكتشف المرأة على الآخر الأهلي أو الغريب المار أو المتواجد بالمكان في حين أنها لا تكون مكشوفة إلا للسماء). فحينما تنشغل المرأة بالداخل في أول النهار تكون الشرفة منزوع حاجزها ومفتوحة نوافذها وحين تتجه إلى أعمال تكميلية أو طلب الراحة في مكان مهوى ومشمس (الانتقال من الرطب إلى الجاف من المجال). ففي تفسير أحد متساكنات البناءات العمودية أو ذات الطوابق لهذا السلوك ورد في خطابها " الصباح أقوم بتهوية البلكونة (الشرفة) كي تدخل الشمس الى الغرف حينما أكون منشغلة بترتيب البيوت أو بالمطبخ أما العشية (المساء) فأجلس فيها وحدي أو مع بناتي أو إحدى الجارات " نشوفوا وجه ربي " ونتنسم وتبادل الحديث عن أمور الدنيا. لذلك نضع هذا لحافا أو حاجزا مشبكاً سترة وكي نكون على راحتنا". يحتفي هذا المجال، إذا، بشاغله فيعيد ترتيب أشياءه لينتقل مظهرًا مختلفًا ومخالفًا ينتقل به مؤقتًا من الظاهر إلى المخفي ومن الانفتاح إلى الانغلاق. فكأن المكان يتعرف على صاحبه ويتأقلم من أجله ولأجله حتى يكون متهيئًا لأن يحتفظ به. إننا أمام فعل يتجاوز بعده المادي أو أسبابه المادية الظاهرة. يخلق حالة من الفسيفسائية الذائقة والجمالية تحوّل واجهات المساكن الى نص سيميائي مفرداته هي الألوان والأشكال والمواد التي تستحيل الى علامات تستدعي تأويلها لبلوغ مدلولاتها التواصلية أو المجتمعية. فكلّ تصرف في المجال معماريا أو جماليا أو فنيا إنما هو فعل رمزي يتعاطى مع الأشكال والألوان والمواد والأشياء والفراغات كعلامات لتمرير رسائل ذات مدلولات رمزية لكونها تتجاوز ظاهرها المادي الى المعاني الخفية المضمنة في الفعل. فالمستعمل لمجاله الخاص إنما يعيد فهرسة وترتيب القيم والمعايير ليعيد التوقيع في النسيج الاجتماعي الجديد ضمن الحي القديم أو الأحياء الجديدة بالمجال الحضري الذي خضع الى مشروعات تجديد أو إعادة تهيئة حملت معها صورة من صور الهيمنة الحضرية التي لم تمسّ النسيج العمراني فقط بل حلحلت أيضا نسيج الروابط الاجتماعية (Paugam, 2008). ذلك أن الحضرية هي أسلوب حياة لدى وارث موسوم أساسا بالفردانية وتفتت القيم الجماعية والاستعاضة عن علاقات القرابة والدم والروابط الاثنية والمهنية القوية بعلاقات الجيرة الضعيفة (صبحي، 1994). ثم إنّ التدخّل في واجهة الدار المتمثلة في الشرفة ليست غايته إعادة توزيع المساحات أو إعادة توزيع المهام والوظائف الأصلية للمجالات المبنية أو الفارغة بل أنّه اخضاع للمجال الخاص الى تراتبية وفهرسة تحمل معها مراجعة ومساحة لعب وميدان للمراوغة والتعبيرات الخطائية التي تحكي وتبني شبكة العلاقات التي توصل الفاعل الاجتماعي بالفضاء السكني والمجال الحضري المشترك (بيئته المجتمعية) حين تصبغ عليه تصوّراتها ومعاييرها وقيمها فيصبح قادرا على أن يحكيها (Lussault, 2007) ضمن مجتمع المدينة الذي كلّما أوغل في الحضرية تساقو التقارب المادي بين السكّان مع التباعد الاجتماعي بعامل تأسس العلاقات الاجتماعية على المصلحة (الفردانية) وتفكّك القيم التقليدية الجماعية.

3. العنونة الاجتماعية لواجهة الدار: نحو سيميائية اجتماعية

لا تنفرد الطبقات الأقل حظا ماديا بهذه النزعة التي تمنح واجهة المسكن دينامية تحكي وتحكي التقسيم الجنسي لاستخدام الفضاء الذي يعيد في كل مرة ترتيب العلاقة بين الداخل والخارج ويعيد استحضار ثنائية الحلال والحرام والمباح والمرفوض التي تتجسد رمزيا في جدلية المفتوح (عذرية المكان في غياب أو تغيب الحواجز المادية المفتعلة) والمغلق (حضور أو استحضار وقتي للحواجز المادية). فالطبقة المحظوظة ماديا تلتقي مع الطبقات الأقل حظا ماديا في العنونة الاجتماعية للمظهر الخارجي من مجالها الخاص (الدار) مع التمسك بالأشكال والزينة التقليدية للأبواب والشرفات التي تشير الى عراقة المجال وتجذّره في تاريخه بشكل يكشف رتبته ومكانتها

الاجتماعية ضمن النسيج الاجتماعي لمجتمع المدينة (بريز، 1989). فهي ضمن الفضاء التقليدي تكشف عن ميل للمراوحة بين الاحتفاظ بالبعد التاريخي والمُعَلَّمي للبناءات والأشكال والزينة المميزة للأبواب مثل السمكة (تسمى هنا حوتة) وقرون الحيوانات (الغزال الكبش أو الثور) والخمسة، أو يد فاطمة (صولة، 2005) والشرفات وبين الحديد المستحدث في المواد والأشكال الهندسية والألوان (تجديد الأبواب واحاطتها بأطر واعمدة من الرخام أو تغيير مواد النوافذ من الخشب الى الألمنيوم). أي تكلف المزاجية بين المعمار التقليدي والمعمار الوافد والدخيل على المجال التاريخي⁸. فهذه الطبقة الاجتماعية تختلف مع المختلف وتتماهى مع المتشابه. فيتسع مجال تدخلها في واجهة سكنها إذا كان محيطها لا يرتقي الى رتبته الاجتماعية وكأنها تعمق عزلتها في المكان أو هي تثبت موقفها الانعزالي هذا الى من يحيطون بها. وهي في كلى الاتجاهين توصل المحلي او الفضائي بالاجتماعي او هي تعنون وجه الدار اجتماعيا لتذكر او تروج للمرتبة الاجتماعية. ذلك أن هذه النزعة تتراجع لصالح الرغبة في الحفاظ على التماثل والتشابه في المظهر الخارجي للسكن الذي يميز المجمعات السكنية الجديدة التي يلتقي أو يتقارب شاغليها في الرتبة الاجتماعية. ففي هذه المجالات يغيب الى حد ما التخالف والمخالفة التي تصنع الفوارق النوعية معماريا وجماليًا ومساحيا ليفسح المجال لنزعة التجانس والتناسق القصدي في كثير من الأحيان.⁹ فالحضرية كنمط عيش وأسلوب حياة تدفع الناس ضمن المجال المدني الى التكيف مع مقتضيات الحياة المدنية (Castells, 1997), فالواجهة أو المظهر الخارجي للدار تتحول الى قناة تواصل بين شاغليها وقارئها الذي يتقاسم معها المجال الحضري تثبت رسالة ترشد المتلقي الى موقعه ضمن النسيج الاجتماعي لمجتمع المدينة وتنقل اليه موقفه من بيئته المجتمعية ورؤيته للمجال الحضري الذي يتقاسمه معه بدون ارادته. فكيفية تحوّل الفرد او الجماعة للمجال الخاص وما تقيمه من استعمال لها يؤلف خطابا سيميائيا يحوّل واجهة الدار الى لغة تواصلية حيّة ومتبدلة يرسم مضمونها ماديا على البناءات ومكوّناتها. فتؤثر تبعا لذلك في التناسق المعماري والفني والجمالي للبناءات والأنماط السكن بالمدينة ويستوعب أو يتلقى تأثير الهيمنة الحضرية بدرجات متفاوتة. ويقتضي فك رموز هذه اللغة وفهم مدلولاتها المعرفة بالفاعل الاجتماعي الذي يبيّنها ويوجّه رسائله المشقّرة ماديا وجماليًا ومعماريا عبر ما اسمناه بواجهة او وجه الدار. ويشكّل هذا التقابل بين "الدوام والتغيّر الملاحظ والمنعكس في المعاش الفضائي إحدى المشاكل السائدة للتمدّن، في المدينة العربية التقليدية مثلما المعاصرة" (Bouhdiba, 1979) وهو ما يجعلنا نطلق عليها مع الدكتورّة زناد تسمية "المدينة المزروجة" التي تعيد انتاج القديم في الحديد والتقليدي في الحديث في الآن ذاته الذي تخضع فيه هذا الحديد أو الحديث الى معقولية التقليدي والتراثي والتاريخي في دينامية تصنع من ثنائية الدوام والتغير التي تحدّث عنها بوحديّة (Bouhdiba, 1979) لعبة تكيف واندماج تتغيّر مقوماتها بحسب المورفولوجيا الاجتماعية للمجال الحضري المشترك وتصنع ذلك الحاصل المدني الموسوم بالازدواجية والتداخل والتنوّع والتخالف والدينامية التي تنفلت عن المراقبة.

⁸ هل يمكن الحديث في حضور هذه الازدواجية والتداخل بين التقليدي والحديث عن أزمة هوية معمارية فعلا قد تحيلنا الى الحديث عنه كأحد مظهرات أزمة الهوية الحضرية للمجال التقليدي التاريخي الذي لم ينجح في سياق الهيمنة الحضرية التي تشهدها المدن العربية منذ الفترة الاستعمارية والى اليوم في الحفاظ على شخصيته المحلية كفضاء تقليدي معلمي يختلف مع اشكال التمدّن والحضرية الجديدة في مرجعيته الأيديولوجية والقيمية والمعارية.

⁹ فهذا أحد الذين تم مقابلتهم من سكان هذه المجمعات السكنية الجديدة مجتمع الدراسة يقول "انا لا أجد ما يجعلني افكر في تغيير واجهة المسكن. فليس ثمة ما يقلق ويدفع الى احداث التغيير. بل على العكس يعجبني هذا التقارب في الألوان والأشكال والذوق. اظن ان السبب البارز لهذا التناسق هو ان غالبية سكّان الحي متقاربين جدًا في المستوى المادي ولثقافي".

تحتفظ الفضاءات التي تحوزها أقدم سكان مجتمع الدراسة (البليدي Le Beldi) بدوامها في الزمن على شاكلتها التاريخية القديمة التي تروي عمق الروابط التاريخية بالمكان وأشياءه يختلط فيه التاريخي بالأسطوري والموثق بالمروي والمرئي بالشفهي. فهم يعرضون أنفسهم ويصرون على ذلك في حواراتهم معنا واحتفاظهم بالقديم من الأشكال والأشياء والزخارف والفراغات رغم اهترائه أحيانا، كجزء من تاريخ المكان وشواهد "معلمية" على ماضيهم الذي لا يحجبون إليه ولا يعرضونه فلكلوريا بل هو حاضر فيهم وعبرهم في المعمار والأشكال والزخارف والألوان والاستعمالات. فهم على خلاف الأقل اقدمية تواجد بالمكان يعتبرون أنفسهم حراس الذاكرة ومتحفها المتحرك. فشرعيتهم التاريخية، من وجهة نظرهم، تُغنيهم عن تفضية مكاناتهم الاجتماعية غير المستمدة من الوضعية المادية بقدر ما هي مقترنة برمزياتهم التاريخية المتماهية مع المجال المشغول. ففي غياب هذا الرباط الرمزي بالمكان تحضر بقوة نزعة بلورة الفضاء السكني الخاص بشكل لا ينجح في حسم معادلة التقليدي والحديث. فهم لا يغيرون في الحقيقة المعمار ولا تاريخه بل يضيفون ما يجسّر العلاقة بذائقتهم الجمالية والفنية وتصوّراتهم وانتظاراتهم من الآخرين. فثمة علاقة قوية بين الاندماج الاجتماعي وفعل التدخل في واجهة الدار. ذلك أنّ من يكشفون عن تفكك علائقي بالأجوار وبيئتهم الاجتماعية هم ذاك الذين أقدموا في فترة ما من تواجدهم بالمجال الحضري الى تعلية السور الأمامي للدار واغلاق فتحاته بشكل يوسع مسافة الغموض بين الداخل/الخاص والخارج غير المرغوب فيه أو الغريب. وعادة ما يتسّر فعل إعادة تشكيل وترتيب الفضاء الخاص على صعيد الوعي أي المعنى المسند له من قبل الفرد الاجتماعي (الانسان المجالي بامتياز) بقيم أخلاقية ودينية في سياق تبريريّ تضليلي لكونه يمّوه بذلك عن رؤية يتعمّد اخفائها وعن أيديولوجيا حضرية تسيّره وتوجّه فعله. فحرمة هذا الداخل هي ثقافة الشاغل التي تتعيّن ماديا في هذا السلوك الرمزي الا أنّه يتلون ويتأثر بدرجة اندماجه في محيطه الاجتماعي وقدرته على التكيف مع التغير الذي تفرضه سيورة التمدّن والتمدين.¹⁰ فأن يتعمّد الشاغل اضافة فواصل مادية/بصرية للشرفة أو الشبايك المطلّة على الشارع أو تعلية السور الأمامي للدار فذلك فعل ثقافيّ بامتياز لما فيه من استدعاء واستعادة للقيم والمعايير والتصوّرات والتمثّلات التي تعمل كمؤسسة وجماعة (1997, lamizet) أو في الآن ذاته الذي يمكن توصيفه بالفعل التواصلية بما أنّه خطاب اجتماعي يستبطن أسلوب تكيف واندماج اجتماعيين ضمن مجتمع المدينة. فالمدينة بما هي تنظيم اجتماعي ورمزي للمجال تنفتح على الصراع الاجتماعي ومحاولة المهيمن دائما اقضاء المهيمن عليهم وتهميش النازحين أو الوافدين على المجال الحضري في سياق الصراع الطبقي الذي يجد تعبيره في الصراع الحضري (Castells, 1972). فثمة تناقض مستمر بين الاجتماعي والمجالي (Marchal, 2010) يؤكده ذلك التداخل الجدلي بين التقليدي والحديث المتغاير من سياق اجتماعي الى آخر مثلما أسهنا في استنتاجه لدى الطبقة المحظوظة ماديا.

إنّ الفضاء المديني أو المجال الحضري، بهذا المعنى هو مسرح تزدوج وتعدّد أدوار لاعبيه أو بعبارة أدقّ تزدوج أبعاد أدوار الفاعلين ضمنه (Maffesoli, 1979). فصورة الواجهة كنافذة توصل الباحث بصورة الرابط الاجتماعي للفرد ودرجة متانته أو هشاشته هي مسرح يُشهد دينامية وتبادلية الصلة بين الذاتي/الخاص

¹⁰ يجتري هؤلاء في حوارهم معنا حول قيم الجوار والصدقة بأن الحي فقد بريقه وتضامنه القديم حيث كان الأوقّة والأنهج الضيقة في المدينة التقليدية بمثابة وسط الدار (الحوش أو الوسطية) حينما تفتح أبواب الدور على بعضها. فلم يكن هناك حرج في انفتاح الأجوار على بعضهم البعض. فهم وإن لم تكن بينهم روابط النسب والقرابة فإنّه تجمعهم علاقات جيرة وصدقة قوية جدا. ثم ان الكل كان يعرف الكل. فحتى ضمن الأحياء التي تباعدها الأنهج الواسعة لم يكن هناك داع لكل هذا التسرّر الفضائي الذي نلاحظه الآن. فالكل يحترم الكل ولا يجريّ الا القلّة على اقتحام حرمة الداخل. ثم ان الناس يعرفون بعضهم البعض ولهم مجالات كثيرة للتلاقي والتعارف وتبادل الأخبار والمعلومات.

والعام/المختلف ويعيل الى نظام رمزي مكثف على اعتبار أن ' أي سلوك هو رمز'(Edward,1971). فالدار هي " صلة عينية بين وجودي والعالم الذي يحيط بي (Bouchrara,1984) وفضاء للعب ولظهرة، لا فحسب، الرتبة الاجتماعية بل افتعالها او تصنعها في إطار رؤية واستراتيجية اندماجية خاصة ضمن المجال العام والمشارك تظهر التوتر المستمر بين علاقات التباعد والتقارب(Grafmeyer,2009). فنحن إذا أمام تبادلية بين المجالي والاجتماعي(Belhedi,1993) تتقاطع وتتفاذ ضمنها استراتيجيات اندماج دفاعية تراوح ممارسات الفاعلين الاجتماعيين المحلية بين مسايرة التغير والتكيف مع اكراهاته والتواصل مع الماضي التقليدي الذي هو ماضي الذات مثلما تكشف عنه الممارسة المحلية للجيل الثاني من "بلدية" الحفصية.¹¹

يكشف البحث عن ترابط وثيق بين نزعة تكيف شاغلي الدار ضمن المجال الحضري للتغير ولموجات التمدين التي استوعب تأثيراتها النسيج العمراني والجسم الاجتماعي للمدينة ومتغيري أقدمية التواجد بالمجال (الألفة بالمجال والمكان) والمستوى المادي. ذلك أنه كلما سعدنا في المستوى المادي ونزلنا في أقدمية التواجد للأفراد والجماعات كلما عبرت هذه الأخيرة عن ميلها للأخذ بالجديد والتساق مع من حيث ادخال عناصر حديثة على المعمار كالشبابيك البلورية وستائر الألمنيوم والإطارات الرخامية للشبابيك والأبواب. معنى ذلك أنه كلما تدرجنا صعودا في متغير أقدمية التواجد بالمكان وكلما نزلنا في المستوى المادي لشاغلي الفضاءات سواء التاريخية او الجديدة كلما تراجع نزعة التداخل والتفاذ بين التقليدي والحديث. لتسجل هذه النزعة أضعف مستوياتها لدى الشريحة الأقل حظا ماديا والفئة الأقدم تواجدا في فضائها.

أما السكان الأقل أقدمية تواجد بالمكان (البلدية الجدد) فتختلف الأكثر منها حظا ماديا مع " بلدية " الجيل الثاني من نفس الطبقة في تعبيرها عن ضعف ميلها الى الاحتفاظ بالخاصية التقليدية والتاريخية للسكن ولتمظهراته المعمارية والجمالية اعتبار لتمثلها للدار كمجال إقامة لا يحمل لها ذكريات ولا يصنع عالما خاص مثلما تتمثله الفئة الأقدم تواجدا بالمكان. فهي تبدي رغبة واضحة ملاحظة وتصريحا في تغيير مقومات المعمار التقليدي لمجالها الخاص بأشكال مختلفة تسم مواد الأبواب وزخارفه أو إضافة ما يعرف بهوية ساكني الدار أو تحويل الشرفات كليا الى جزء من غرفة النوم أو الجلوس عبر إعادة بنائها أو تغليفها جوانبها بالبلور غير المرئي. إننا أمام سيورة تمدن عفوية تمارس رفضا ومقاومة لمشروع التمدين الشكلي والرسمي الذي ينشد التوحيد والحسم في اختلاف المرجعيات السوسيو-ثقافية للمتساكنين عبر التدخل في المورفولوجيا الاجتماعية والتحكم في سيورة تبدلها. ولذا كان ألكسندر(1971) يعتقد في أنّ المورفولوجيا الحضرية تنجم عن حاصل اتجاهات السكن الفردي.(Alexander,1971) أما ذوي الأصول الريفية من شاغلي منطقة الحفصية الأقل أقدمية فلا تبدي اختلافا نوعيا ولكن احتفاظها بمقومات السكن التقليدي(الذي تتمثله كذاكرة حيّة = حضور دائم للماضي) لا يغطي كل سلوكها تجاه هذا النمط من السكن. فهي تميل بدرجة أولى الى تغيير بصفة خاصة ولافتة الباب التقليدي بحديث ولكن أيضا التدخل في واجهة الدار وبصفة أخص تعلية السور وغلق فتحاته التي تفضي الى الداخل. فحديقة المنزل كما في السكن الريفي هي امتداد للداخل ومكمل للخاص وبالتالي تدرج في دائرة الذاتي والسرّي والغامض الذي تريد ان تحتفظ دائما بفصل بصري بموقعه أو يبقيه في الظلّ (العتمة والغموض) ويخرجه

¹¹ أي الذين لهم أقدمية تواجد مجتمع الدراسة تتجاوز 25 سنة. فهم اما أبناء لأقدم سكّان المنطقة وورثوا سكنهم عنهم او توسعوا بالبناء الفوقي للاستمرار بالتواجد في المكان أم الوافدين على المكان في سياق المشروعات السكنية التي أحدثت ضمن مشروع 1981 وما بعده أو في إطار تقويت المتساكنين الأصليين للمكان لسكنهم ضمن هجرة هؤلاء الى المدينة الأوروبية لأسباب عديدة. أنهم من

من دائرة الضوء (المكشوف والواضح). يفضي ذلك إلى استنتاج أكيد بوجود تداخل بين التقليدي والحديث في سلوك ذوي الأصول الريفية مثلما في ممارساتهم الفضائية (ارتباط المجال بالاجتماعي عند لادروت) (Pelligrino, 2010) لا يغزّر باستعمال تأكيد نزعتها التحديثية. فالمضمون التحديثي يتّصل، كما يبدو واضحاً، بالبعد الجمالي لفعالها المادي. أمّا المضمون التقليدي لهذا الفعل فيكشف عن رفض العلاقات وجه لوجه بين الداخل والخارج التي يقترحها المعمار الحديث. لذلك فالمضمون الأعمق لتدخلها في فضاءها يعيد إنتاج مفاهيمها وتصوّراتها وتمثّلاتها الريفية لنمط السكن وكيفية شغله في علاقة بالآخر المجاور والمقابل، الأهلي أو الغريب. ويشغل السور لديها مثلما لدى الجيل الأقدم " لِبْلَدِيَّة " الحفصية اليوم وبدرجة أقلّ الجيل الثاني كعازل أو فاصل اجتماعي. وهم لا يرون داعياً إلى إعادة تهيئة وتحسين كامل الفضاءات الداخلية على خلاف الوافدين على الحي من الأحياء التي تقع خارج السور الداخلي للمدينة التقليدية والمقصود به رضى باب سوقة ورض باب الجزيرة اللذين يقعان في تحوم الحفصية (مصطفى زيس، 1981).

4. المضمون القيمي لتغيير مورفولوجيا الدار

تستعيد أو تستنسخ مورفولوجيا الدار مورفولوجيا المدينة العربية الإسلامية في علاقة بثنائيات المقدّس والمدنّس والحلال والحرام. فهي توزّع الداخل /الخاص وفق تراتبية هرمية تموقع المقدّس في الوسط (الجامع ضمن مورفولوجيا المدينة ووسط الدار أو ما يسمى في التداول اللغوي التونسي بالحوش أو الوسطية). ويتحدّد موقع كل مجال (الغرفة) ضمن مورفولوجيا الداخل بالنظر لهذا الوسط بناء على مدى قدسيته. يحتفظ أقدم شاغلي منطقة ' الحفصية' بمورفولوجيا الداخل أي التوزيع الوظيفي والمجال للغرف وترتيبها الفضائي بالنظر إلى مدخل الدار التي تسمى في الثقافة التونسية بالعتبة " باعتبارها الحدّ العازل والواصل، في آن، بين المنزل و الشارع ينطوي على تعيين اجتماعي و رمزي يقوم على ضرب من التقابل بين الفضاء الخاصّ و الفضاء العامّ، و بالتالي التمييز بين المرجعية العائلية و المرجعية المجتمعية بكلّ ما تنطوي عليه من التصرّوات و المواقف، وهي الوظيفة نفسها التي يؤمّنها الباب عبر ثنائية الانغلاق والانفتاح والضيق و الاتّساع" (صولة، 2005).

تحتفظ غرفة الاستقبال (السقيفة)، لدى هذه الفئة، بموقعها المقدّم في مورفولوجيا الدار. فهي تستقبلك بالفعل كفضاء استقبال وعبور وقد لا تنتقل كوافد إليها الى العبور نحو فضاء آخر أكثر تقدّمًا في اتجاه الداخل إذا كنت غريباً او غير مستأنس للمكان. فالدار في شكلها المورفولوجي القديم انتقائية وتخضع الداخل إليها او المدعو الى دخولها ان يمرّ بأكثر من فاصل مجالي لا يجتازه الى غيره من الفواصل المتقدّمة الاّ من كان أليفا ومرحّب به او أنّ الرابط الاجتماعي يرقى الى مستوى رابط الدم أو القرابة أو أحد المحارم. وتعتزك غرفة الاستقبال مباشرة على يمينك أو شمالك إذا نجحت ففي اجتياز العتبة أي باب الدار. وتفضي غرفة الاستقبال اما مباشرة أو عبر ممرّ ملتوي الى وسط الدار (الحوش أو الوسطية أو صحن الدار). وهنا يتحول الوسط الى مجال انتقاء وعبور جديد يحدّد حركة انتقال واستقرار الجسد في الفضاء بالنظر الى عمق الرابط الاجتماعي من عدمه بالزائر او المستقبل، فإنّما أن تكتفي الزيارة من مورفولوجيا الداخل بهذا المجال المتقدّم منها ولأكثر عمومية فلا يسمح له بالتحرك أعمق في الداخل وأما ان كان أكثر ألفة بالمكان وشاغليه فإنه يعبر نحو مجال أكثر تعبيرا على الحميمية مثل بيت الجلوس التي يسمح اثائها بحرية أوسع جلوس وتمدّد الجسد. وتقع أكثر الغرف قداسة وغموضا وسريّة وهي غرفة النوم في المورفولوجيا التقليدية للدار العربية الإسلامية في آخر الداخل الذي لا ينجح أي زائر او ضيف الى بلوغه أو التكهّف على داخله الاّ إذا كان أقرب ما يمكن لشاغلي الدار.

يتكرر هنا أيضا تفرّد أقدم سكّان المنطقة مرة أخرى برفضها اخضاع فضائها اليومي الى مراجعات سواء على واجهة الدار كما أسلفنا أو فيما يتّصل بمورفولوجيا الدار أو بالوظيفة التاريخية لكل جزء من هذا الداخل التي شبّوا وتنشّؤوا عليها. فهم كذلك يحتفظون بمورفولوجيا الداخل كما هي دون تدخّل يمسّ من تراتبيتها التي تعيد تثبيت الأيديولوجيا محاليا وبالتالي تحيلنا الممارسة الفضائية الى الأنثروبولوجيا الحضرية بما أنّها استعادة لتاريخ المدينة واستحضار لمدوّنتها الرمزية والثقافية. فالذاكرة ترسّخ الحقائق التاريخية للمدن وبخاصة الصغيرة منه (Chastel, 1989). إلّا ان هذه النزعة تتراجع وتفتر إذا نزلنا في مقياس أقدمية التواجد بالمكان إذا تعلّق الأمر بالجمال التقليدي ومعماريته التاريخية المعلمية باعتبار أنّها لا تشكّل مكوّنًا هوياتيًا بالنسبة اليها يشدّها بالمكان الذي تتمثله كمقرّ إقامة او سكن أكثر منه عالم خاص (كما لدى الجيل الثاني من أقدم سكان المنطقة) أو يرتقي الى أن يكون ذاكرة حيّة كما لدى أقدم سكّان المنطقة. أمّا إذا استدعينا متغير المستوى المادي لشاغلي فضاءاتهم فإننا نقف على قاعدة مقلوبة للذي سلف شرحه. ففي حين يمس فعل مراجعة وتعديل مورفولوجيا الدار تراتبية الغرف ووظيفتها ومعمارها وموادها وحتى امتدادها العمودي لدى الفئة الأكثر حظا ماديا، فإنّ الفئات الضعيفة والمتوسطة تعيد تثبيت وادامة الموجود لا عجزا على القيام بذلك (كما تصرّ أن تمرّر ذلك في حواراتنا معها) بل أنّها تجد فيها ما يستجيب لانتظاراتها ولتصوراتها وتمثّلاتها للمجال الخاص.

يصرّ شاغلي الدار سواء التقليدي أو الحديث أو الحديد على محورة غالبية تدخّلها في غرفة الجلوس والاستقبال المجال الذي قد يكون أقرب وآخر فضاء يمكن للغالبية أن يسمح لهم بالتكشّف عليه أو اكتشافه. فهو كما أسلفنا بؤابة الفعل الانتقائي الذي يستقبل ويوجّه حركة انتشار وتنقل جسد الغريب أو الأليف داخل الدار. لذلك وجدنا أنّها بؤرة الاهتمام لدى كل الطبقات تقريبا وإن بأشكال ومستويات متفاوتة بينها. الا أنّ الطبقات الأكثر حظا ماديا تنزع الى تكثيف ما يحيل الى رتبها المادية والاجتماعية انطلاقا من الباب وفي كل اركان بين الاستقبال ولا تعمد الى خلق حواجز بين فضاء الاستقبال والعبور هذا وباقي الفضاءات الداخلية. أمّا الطبقات الأقل حظا ماديا فتميل الى تكثيف الرمز الذي يراوح بين افتعال الرتبة (تقليد الأرقى دون بلوغه) والاحالة الى نوع آخر من مصادر الاعتزاز بالمكان من مثل ما يعيد احياء ذاكرة المكان الضاربة في القدم والموصولة بعمق بتاريخية الدار وانتسابها الى اعيان ومشاهير سياسيين او علماء أو أبنية قدسية ومقدّسة وما الى ذلك من العناصر التي تعوّض التفوّق المادي بالانتساب او افتعال هذا الانتساب المزعوم أحيانا (فيما يرد في اقوالهم ومزاعمهم) الى عراقة المكان وشرعيته المستمدة من تاريخ المدينة.

IV- الخلاصة :

تسجّل المدينة اليوم رجوعها الى صدارة او بؤرة اهتمام السوسيولوجيا عامّة اعتبار الى أنّها مجتمع محليّ له مقوماته واستقلاليته وخصوصياته التي تفرض حضورها بقوة في المقاربات التنموية اليوم تحت مسمّى التنمية المحلية. أمّا السوسيولوجيا الحضرية فيبدو أنّ تكشّف عن استعادة جادّة لموضوع المدينة والتفكير السوسيولوجي في ظواهر الحضرية والتحضر وكل الظواهرات الجديدة التي تفرض التخلّي عن العذرية المنهجية (إذا صحّت العبارة) والطروحات أحادية البعد لصالح الأخذ بتعدّد وتقاطع المداخل والسياقات المعرفية ذات الصلة لإعادة فهم المدينة والمدن اليوم (Bassand, 2008) في ظلّ الهيمنة الحضرية التي تمسّ من ثوابت المكان وذاكرته وتعيد فهرسة القيم والمعايير التي قد تصنع في كثير من المدن وبخاصة في مجتمعاتنا العربية أزمة هوية حضرية وأزمة مدينة على اعتبار أنّنا نصنع المدينة حين نتحدث عنها (Fijalkow, 2017). ويتّصل أكثر الاشكال في واقع الحال هذا

بالظواهر الحضرية المرضية التي تمس من انسجام وتجانس النسيج العمراني والمورفولوجيا المحلية والاجتماعية والتاريخية للمكان. ولعل أكثر المسائل اهمالا أو فشلا في بلوغ العناية البحثية المستحقة في سوسيولوجيا المدن العربية اليوم يقودنا الى البعد الثقافي للعلاقة بين الفرد الاجتماعي (Remy, 2015) ومجاله الحضري الخاص (الدار) او العام والمشارك (المدينة) الذي، كما حاولنا من خلال دراستنا هذه، أن ننقب تحليليا على أوجه تأثيرها الوثيق ومتعدد الأبعاد على حاصل التنمية الحضرية وكل مشروعات إعادة التهيئة والتجديد الحضري والعمراني الذي اخضعت له عديد المدن العربية والتي منها المدينة العتيقة بتونس وبخاصة فيما تتخذ البناءات والمعمار والفضاءات من صور وأشكال وهيئات ووظائف ضمنية او صريحة كان لها الأثر البائن على البنية العمرانية والنسيج العمراني للمدينة التاريخية خلقت وضعا اتسم بالتداخل والتنافذ بين التقليدي والحديث واضطراب صورة المدينة وتحوّلها الى مجال لتوجيه وتأثير التغيير العفوي واللا شكلي بالأساس غير المراقب وغير القابل للمراقبة.

قائمة المراجع

المراجع العربية:

- الجادرجي، رفعة (2014). دور العمارة في حضارة الانسان. بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية.
- الدجاني، دنيا وعابدين، محمد يسار (2009). اتجاهات التركز الحضاري في الجمهورية العربية السورية. دمشق. مجلة دمشق للعلوم الهندسية. المجلد 25.
- إسماعيل، أحمد علي (1988). دراسات في جغرافية المدن. القاهرة. دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- السعيداني منير، الاستعمال المضارح للماضي، مدونة ثقافة ومجتمع، تاريخ الاسترجاع: 15 يوليو/جويلية 2017 http://mounidani.blogspot.com/2008/09/blog-post_05.html
- الكيال، رلى عدنان (2011). الضوء والظل: بين في الشعر والتصوير. دمشق. الهيئة العامة السورية للكتاب.
- اليحيوي، شهاب (2013). توزيع الفضاء المدني والتغير الاجتماعي. تونس. المركز الجامعي للنشر.
- آدم، أحمد أمين (2011). المدينة وأنماط الحياة، دراسة في علم الاجتماع الحضري. بيروت. دار الطليعة.
- بدوي، احمد موسى (2009). ما بين الفعل والبناء الاجتماعي. بحث في نظرية الممارسة لدى بيير بورديو. بيروت. مجلة اضافات، العدد الثامن، مركز دراسات الوحدة العربية.
- بوعزيزي، محسن (2010). السيمولوجيا الاجتماعية. بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية.
- بوعزيزي، محسن (2010). سيمولوجيا مدينة تونس. بيروت. مجلة إضافات، العدد التاسع، شتاء 2010.
- جيرالد، بريس (1989). مجتمع المدينة في البلاد النامية: دراسة في علم الاجتماع الحضري. ترجمة محمد الجوهري. الإسكندرية. دار المعرفة الجامعية.
- حمروش، رشيد (2012). مسألة الرباط الاجتماعي وسوسيولوجيا الحياة اليومية أو المعاش. بيروت. مجلة إضافات، العددان 17 و18، شتاء وربيع 2012.
- خواجة، أحمد (2006). ديار المدينة العتيقة بالمهدية: من الدار "التقليدية" إلى توافد الفئات المرفهة واكتساحها للمدينة النواة. مجلة انسانيات. 32-33 ص.
- دوبري، ريجيس (2000). حياة الصورة وموتها. ترجمة فريد الزاهي. المغرب. افريقيا الشرق.
- دوران، جيلبار (1994). المخيال الرمزي، ترجمة علي المصري بيروت. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- سراج الدين، إسماعيل. الصادق، سمير (1981). المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي. المدينة المنورة. المعهد العربي لإنشاء المدن.
- صباحي، محمد قنوص (1994). دراسات حضرية، مدخل نظري. القاهرة. الدار الدولية للنشر والتوزيع.
- صولة، عماد (2005). سيروية الرمز من العتبة إلى وسط الدار: قراءة انثروبولوجية في السكن التقليدي التونسي، مجلة انسانيات، عدد 5، 22-25.
- عثمان، محمد عبد الستار (1988). المدينة الإسلامية. الكويت. سلسلة عالم المعرفة. العدد 128.
- مصطفى زيبس، سليمان (1981). حول مدينة تونس العتيقة. تونس. المعهد القومي للآثار والفنون.
- معتوق، فريدرك (2006). مدخل إلى سوسيولوجيا التراث. بيروت: دار الحداثة.
- معتوق فريدرك (2007). إشكالية التراث. مجلة الموقف الأدبي السورية، العدد: 429.
- نضال محمد بحيت، أحمد أبو قميص (2012). الهيمنة الحضرية للحرطوم الكبرى الأسباب والحلول. السودان. مجلة جامعة بحري للآداب والعلوم الإنسانية.

هاري، ديفيد (2017). مدن متمردة: من الحق في المدينة الى ثورة الحضر (2012-2013). ترجمة لبنى صبري. بيروت. الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
هالبواك، موريس (1976). المورفولوجيا الاجتماعية، ترجمة حسين حيدر. بيروت. منشورات عويدات.

Bibliographie Française

- Abdelkefi, Jallel (1989). La Medina de Tunis ; Espaces Historiques. Tunis .ALIF.
- Abric, J.-C. (1994). Pratiques sociales et représentations. Paris : Presses universitaires de France.
- Alexander, Christopher (1971). De La Synthèse de la Forme. Paris. Dunod.
- Authier, Jean-Yves (1992). Le quartier à l'épreuve des «mobilités métropolitaines», In : Espace, populations, sociétés, 1999-2. Les mobilités spatiales.
- Authier, Jean-Yves, Bonvalet, Catherine ; Lévy, Jean-Pierre (2010). Elire domicile. La construction sociale des choix résidentiels, PUL.
- Baduel, Pierre Robert (2009). La Ville Et L'urbain Dans Le Monde Arabe Et En Europe, Acteurs, Organisations et Territoires, Paris. Maisonneuve et Larose.
- Barthes, Roland (1984). Le Bruissement de la Langue .paris. Seuil.
- Bassand, Michel (2008). Cités, villes, métropoles. Le changement irréversible de la ville. Paris. Presses polytechniques et universitaires romandes.
- Belhedi, Amor (1993). « L'espace géographique », in L'espace, Concepts et Approches, Tunis. Publication de la Faculté des Sciences Humaines et Sociales, Université Tunis I.
- Berque, Jacques (1958). Médinas, ville neuves Et bidonvilles, dans « les Cahiers de Tunisie ». n°21-22. 1^{er} et 2^{ème} trimestre. Pp5-42.
- Bouchrara, Zanned, T (1980). Essai d'analyse socio-morphologique, la relation entre les pratiques corporelles féminines et le cadre urbain à Tunis, th 3eme cycle.
- Bouchrara Zanned, Traki (1984). Symboliques corporelles et Espaces Musulmans, Cérés prod. p11.
- Boucharda Zanned Traki (1994). La ville mémoire. Paris. Éd Méridien klineksieck.
- Bourdieu, pierre ; Passeron J.C (1970). La Reproduction. Paris. Ed. Minuit.
- Bourdieu, Pierre (1980). La maison Kabyle ou le monde renversé, dans Le sens pratique. Paris, Minuit.
- Capel, Horacio (1985). L'Humaniste Et Les Acteurs De l'Urbain .Revue, L'espace Géographique. N°3 / 1985 .T 14.
- Castells, Manuel (1972). La Question urbaine, Paris, Maspero.
- Castells, Manuel (1997). Vers une théorie de la planification urbaine. Paris. Maspero.
- Chastel, André (1989). « Le patrimoine ». Dans Encyclopaedia Universalis. Paris. Symposium.
- Chevallier, D ; Bouhdiba, A.W (1979). L'espace social de la Ville arabe. Paris. éd Maisonneuve et Larose.
- Choay, Françoise (1994). Le règne de l'urbain et la mort de la ville », in Jean Dethier et Alain Guiheux (dir.), La Ville. Art et architecture en Europe (1870-1993). Paris .Centre Georges Pompidou.
- Daoulati, Abdelaziz (1976). Tunis sous Les Hafsides .Tunis. INAA.
- Durand .Gilbert (1969). Les structures Anthropologiques De L'Imaginaire. Paris. Bordsos.
- Duvignaud, jean (1994). Anthologie Des Sociologues Français. Paris, puf.
- Edward T. Hall (1971). La Dimension cachée. Traduit de l'Américain par Améle Petita. Paris. Éd de seuil.

- Edward, sapir(1971).Anthropologie, Traduit par Chr. Baudelot et P. Clinquart, Paris, Editions de Minuit.
- Ferrier, J. L(1979). Sémiotique de l'espace, paris ,Denoël Gouthier.
- Fijalkow, Yankel (2007). Sociologie des Villes. Paris. La découverte, coll. « Repères Sociologie ».
- Fijalkow, Yankel (2017). Dire la ville c'est faire la ville. La performativité des discours sur l'espace urbain, Villeneuve d'Ascq,Paris. Presses universitaires du Septentrion.
- Fourrier,Ch(1988). Le Nouveau Monde Amoureux.Paris. Anthropos
- FREY, Jean-Pierre(2001).la sociologie urbaine française entre morphologies et structures ”, in : Espaces et société, n° 103 : Paul-Henry Chombart de Lauwe et l’histoire des études urbaines en France, Paris, L’Harmattan.
- Frommes, B(1980).Le logement dans son Environnement. Luxembourg. S.N.B.H.M.
- Giddens, Anthony(1987).La Constitution De La société ; Eléments de la théorie de la structuration. Traduction Michet Audet. Paris. Puf.
- Goffman. Erving(1974).Les Rites D’interaction. Paris. Les Editions de Minuit.
- Grafmeyer, Yves ; Authier, Jean-Yves(2015).sociologie Urbain. Paris. Armand Colin.
- Gurvitch, Georges (1963). La vocation actuelle de la sociologie. Paris. Puf .
- Guy, Tapie(2014). Sociologie de l'habitat contemporain. Vivre l'architecture. Marseille, Éd Parenthèses, coll. « Eupalinos ».
- Halbwachs, M(1950). La Mémoire Collective. Paris. Puf.
- Halbwachs, M(1952). Les cadres sociaux de La Mémoire. Paris .Puf.
- Javeau, Claude (2003).La Société Au jour le jour ; Ecrits sur La vie Quotidienne .Bruxelles. Bibliothèque royale de Belgique.
- Jeudy, H. P(1986). Mémoires Du Social. Paris. Puf.
- Lamizet,Bernar ; pascal sanson(1997).les langages de la ville. Marseille .édition Parenthèse.
- Lebaron, Frédéric(2009) La Sociologie De A à Z.Paris.Dunod.
- Ledrut Raymond(1968). Sociologie Urbaine. Paris. Puf.
- Lefebvre, Henri (1961). Critique de la vie quotidienne. Paris. Éd l’arche éditeur.
- Lefebvre, Henri (1971). Revue espaces et sociétés, N°2 Mars.
- Lefebvre, Henri (1974). La Production de L’espace. Paris. Ed Anthropos.
- Levi-Strauss, Claude(1987).La notion de maison, entretien avec C. Lévi-Strauss », *Terrain*, n° 9, pp. 34–39. Mis en ligne le 19 juillet 2007, consulté le 17 juillet 2017. URL : <http://terrain.revues.org/3184>.
- Lussault, Michel (2007).L’Homme spatial. La construction sociale de l’espace humain.Paris. Seuil, coll° La couleur des idées.
- Marchal, Hervé ; Stébé, Jean-Marc (2010).La Sociologie Urbaine. Paris. Puf. col « Que sais-je ? ».
- Maffesoli, Michel(1979). La conquête du présent, paris puf.
- Moscovici, Serge (1990). Psychologie Sociale. Paris. Puf.
- Paugam, serge(2008). Le Lien Social, paris. Puf. Col « que-s’est-je ».
- Pelligrino, Pierre (2010).le sens de l’espace ; l’époque et le lieu. Paris. Anthropos.
- Pennec, P(1964). Les transformations des corps de métiers de Tunis. ISEA.
- Pinson, Daniel(1993).Des banlieues et des villes. Paris. Éditions ouvrières.

- Rémy, Jean(1996). « Mobilités et ancrages : vers une autre définition de la ville ».in Hirschorn Monique. Berthelot Jean-Michel, Mobilités et ancrages. Vers un nouveau mode de spatialisation ? Paris. L'Harmattan.
- Remy, Allain (2004).La Morphologie Urbaine, géographie, aménagement et architecture de la ville, Paris, Armand colin.
- [Rémy](#), Jean(2015).L'espace, un objet central de la sociologie, Toulouse, Erès, coll.
- Saighi, O ; Bellal, T(2009). Pratiques D'altération Dans Le Logement Collectif Dans Une Ville Nouvelle, Revue Sciences & Technologie D – N°29– Juin.
- Schutz, Alfred(1987).Le chercheur Et Le Quotidien ; Phénoménologie des sciences sociales .paris . klincksieck.
- Roncayolo, Marcel(1990). La Ville et ses territoires. Paris. Gallimard.
- Signolles ,Pierre (1981).L'espace Tunisien, capital et état région. Tours urbaines.
- Signolles, Pierre (2001). La centralité des médinas maghrébines : quel enjeu pour les politiques d'aménagement urbain ? », Insaniyat / إنسانيات, 13.pp 9-44.
- Simmel, Georges(1981). Sociologie Et Epistémologie. Traduction de Gasparin, L. paris. Puf.
- Stambouli, Frej(2011).La refondation de l'urbain et du social dans le Maghreb d'aujourd'hui.in ; A nouveau la ville. Sous-direction de Sandro Cattacin et Agi Földhàzi. Sociograph N°12/2011.geneve.universiré Genève.
- Tessier, R ; Tellier, Y (1988).Changement planifié et évolution spontanée. Paris. Puf.
- Touraine,A, (1984), Le retour de l'acteur, éd fayard.